مقهى سقراط

مراحل تدمير المعنى

نقد السوسيوثقافي في التجربة العراقية

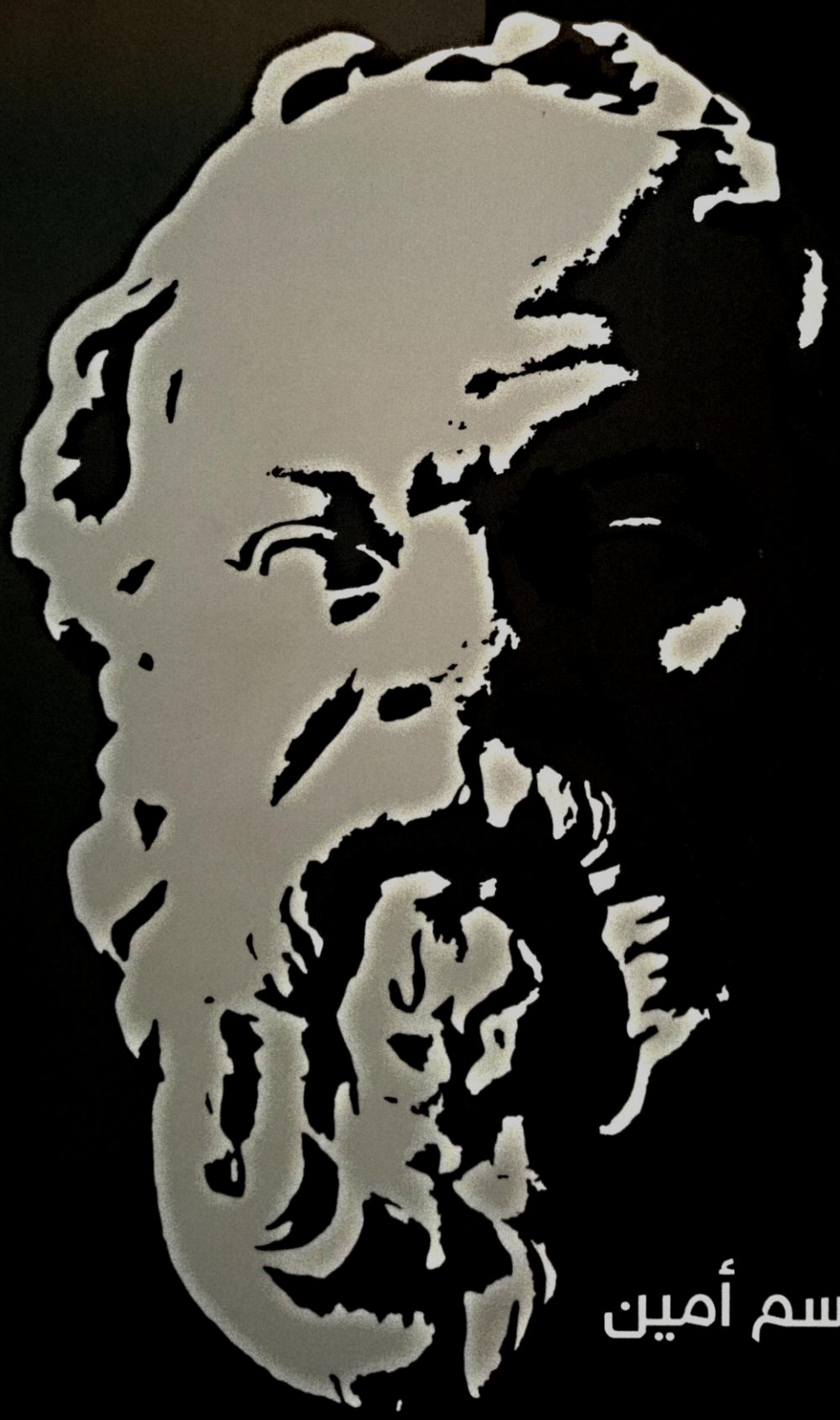

جمال جاسم أمين

مقهى سُقراط

مراحل تدمير المعنى
نقد السوسيوثقافي في التجربة العراقية

جمال جاسم أمين

الطبعة الأولى

٢٠١٤

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق ببغداد٦٦٠ لسنة ٢٠١٣

المؤلف : جمال جاسم امين

دراسات ثقافية

الحجم الوسط

أصدارات رابطة البديل الثقافي

الطبعة الاولى ٢٠١٤

تصميم الغلاف : احمد مجيد

Library of philosophy and knowledge
مكتبة
فلسفة و معرفة
t.me/falsafaANDma3refa
تنضيد ونشر ألكتروني / علاء الموصلي

إهــداء

إلينا .. جميعاً

نحن المغدورين معنوياً ..

من خلال إجبارنا على العيش في وحشة اللامعنى

والى الموتى أيضاً

أولئك الذين قضوا أعمارهم ..

دون أن تدركهم دهشة الحياة!

مقهى سقراط .. كوميديا المعنى

تمهيد

يأتي هذا الكتاب في سياق سلسلة اصدرتها قبل الآن ،اقول هذا ليس على سبيل الأعلان عن تلك الكتب بل للاشارة الى خاصية التواصل بين موضوعها اذ ان كثيرا من الاهداف و المقاصد الفكرية التي تحمل روح المشروع لا يمكن ان يستوعبها الكاتب عبر كتاب محدد ليقول بعدها تم استنفاد الفكرة او توصيلها ، هناك دائما اطراد على صعيد الاكتشاف و المتابعة مثلما هناك تحول في مقصديات الكتابة ذاتها ،ففي احد كتبي السابقة (بين الثقافة و الكارثة) سجلت انتباها حول الآلية التي تتناسل بها و من خلالها الثقافات الخاطئة و التي وصفتها بالكارثية ،الأمر الذي استدعاني الى اقتراح آليات بدائل اذ كان من نتائج البحث عن هكذا مقترحات ان اصدرت بيانا نظريا تحت عنوان (البديل الثقافي) و هو العنوان الذي اتسع لعدد من الانشطة كان من ابرزها المجلة التي اصدرتها بالعنونة ذاتها(البديل الثقافي) خريف٢٠٠٥،بعد حين استجدت الحاجة الى كتاب نظري يستجمع اطراف هذا الخطاب الثقافي المغاير،نتج عن ذلك (وعي التاسيس) و هو الكتاب الرديف الذي أكمل شوط (بين الثقافة و الكارثة) لهذا اقول :ان الأنتباهات تتوالد و على ضوء هذا التوالد تتناسل الكتب بالوتيرة ذاتها ،هنا ينبغي التفريق بين فعل التأليف المتعارف و الكتابة المدفوعة بتحريض (الأنتباهة)، قد تكون الكتابة في الحالة الاولى ممارسة معرفية او اكاديمية في اغلب احيانها بينما هي في الثانية(رسالة) يطلقها الكاتب في ظرف تأريخي على درجة من الحراجة .

- **زمن الشهادة :**

عندما تسعى الكتابة لتاكيد شهادة ما فأنها تدخل في علاقة خاصة مع الزمن ذلك لانها تخشى الضياع او الأنقطاع مثلما يحمل الكاتب خشيته ايضا من فوات الوقت قبل الإدلاء بها ،تقع الكتابة هنا تحت هاجس ما قد يكو ن خطرا داهما كالموت او غيره

،زلزال او كارثه تستبيح المدونات كلها ،للسأم و الخشية منه علاقة بمثل هذا الهاجس ذلك لأن المشاريع عموما قد يفتر حماسها بعد حين ،خاصة عندما يدرك اصحابها او حملتها أن الأهمال هو المرسى الاخير الذي سترسو عنده سفن هذه المدونات . ومثلما يهدد النسيان الذاكرة تهدد اللاجدوى كل فعل يتوخى التأثير او التغيير او الأرخنة بوصفها محاولة لترك علامات على الطريق، كل هذه المفردات هي مقصديات الشهادة التي نخشى عليها ضياعها او توقفها بل نخشى ضيق الوقت المتبقي من أعمارنا و الذي قد يفسد فرصة الادلاء بها كاملة ، هذا النوع من الهواجس هو ذاته الذي راود (نيكوس كازنتزاكي) عندما ذهب (الى ناصية الشارع..للتسول من العابرين،زكاة يا أخوان، ربع ساعة من كل منكم ،آه على بعض الوقت،ما يكفي فقط لأنهاء عملي وبعدها فليأت كيرون) و كيرون هذا هو ملك الموت الذي حالما يحل ينقطع العمل /ينقطع الزمن المتاح امام الشهادة.

- **مقهى سقراط / كوميديا المعنى :**

ترى ما هو المعنى الذي تريد ان تؤكده هذه الشهاده ،هل ثمة حقائق كبرى نخرج لأجلها كي نحكم على انفسنا بالبقاء أبدا في الطريق كما يؤكد حمزاتوف (من خرج يبحث عن الحقيقة حكم على نفسه بان يبقى دائما في الطريق) ام اننا مأخوذون هذه المرة بـ(كوميديا المعنى) التي أبتدأناها ب (مقهى سقراط) و هو خطوتنا الأولى على طريق كشف مراحل تدمير المعنى ،مقهى سقراط انتباهتنا البكر على فجيعة من نوع ما،بدأت هذه الأنتباهة عندما توقفتُ صغيرا أمام يافطة مقهى شعبي في أحد احياء مدينتي الجنوبية (العمارة) كان يشغل هذا المقهى عدد من مربي الطيور و الديكة أو ما يطلق عليهم باللهجة العراقية الدارجة (المطيرجية) هؤلاء الذين لا متعة لهم سوى التحديق في سماء المدينة بحثا عن طيورهم المحلقة أو مراقبة حلبة صراع الديكة عصر كل يوم ،الغريب أنهم اطلقوا على مقهاهم المتواضع هذا الأسم(سقراط)وهي تسمية شدت أنتباه الطفل قبل ان يعرف بالطبع من سيكون (سقراط)هذا؟ و مع مرور السنوات و التجارب ازدادت المفارقة حدة و غرابة أي بعد ان عرفت مغزى هذا

الأسم تماما مثلما عرفت رواد المقهى بالدرجة نفسها ..هل كان هؤلاء البسطاء يعرفون ان سقراط مقولة من مقولات (المعرفة) و ما سبيلهم الى ذلك ؟ بل ما علاقة سقراط برهانات الديكة و معاركها؟ قد لا تنفع مثل هذه الأسئلة ازاء مجانية تصل الى حد أطلاق أسم ما على مسمى لا يعنيه،ليس ثمة قرينة و لا مناسبة، سقراط هنا مقولة أوصلها اللامعنى ألى يافطة المقهى بطريقة أوصلتنا جميعا فيما بعد الى كوميديا من هذا النوع / سخرية المفارقة التي أدهشت الطفل وظلت تلازمه كبيرا و هو يشهد المزيد من المفارقات في سنوات عمره التالية ،الأميون خبراء والفارون من الخدمة العسكرية جنرالات و الشعارون شعراء..اللامعنى يتقدم بأبهة المعنى،نظريات و مفاهيم قائمة على مخاتلة المنطق و العقل ،أديان تقاطع الأيمان و تتناقض معه ،أكاديميون يذرعون محاضراتهم بمسبحة، كبر الطفل و (التقدم يموت من الضحك)..أخيرا شهد هذا المبتلى بالمراقبة و اللأنتباه انواعا من هجرة طيور المعنى فبدأ يفتش اللآن عن مراحل تدميره ،بالطبع أستغرق مثل هذا التدمير ادوارا عديدة فهو لم يحصل دفعة واحدة،الآن نحدق في فراغ أشتركت في توسيعة اكثر من ريح ، مقهى سقراط أخذ يتسع حتى صار في لحظة ما (وطنا) باكمله .. كيف نستطيع ان نتتبع مراحل ذالك التدمير في زحمة العناوين : حكومات وانظمة / احزاب واجيال / قادة اقسموا على انهم سيضحون بدماء غيرهم / مثقفين وكتاب غمسوا اقلامهم في دسم الغنيمة لتظل الحقائق عارية بلا ناصر ، في هذا الكتاب سوف لا يكفينا عرض الظواهر ذلك لاننا نعتقد انها نتائج تحتاج الى بحث مقدماتها .

- **نحو (علم اجتماع ثقافي)..**

بعد التحولات السياسية والاجتماعية التي نتجت عن احداث ٩ /٤ /٢٠٠٣ وما رافقها من خراب وفوضى انبثق السؤال الذي اصبح تقليديا لفرط تكراره : اين المثقف ؟ وما هو دوره فيما يحصل ؟ بل ان اطروحة نقد المثقف واتهامه بالعزلة والهامشية اصبحت هي النغمة السائدة،هل يملك المثقف تبريرا لعزلته وهامشيته سوى اتهام السياسيين بالاستئثار والمجتمع بالتخلف ؟ بهذه الطريقة ينحصر السجال بين نقد

المثقف ونقد المجتمع لتظل الثقافة بعيدة عن مرصد المعاينة / الثقافة بوصفها انساقا ومنظومة معايير لا يمكن فصلها عن المجتمع الحاضن والحامل لها في آن ٠٠ لقد ادركت اننا ازاء هذا النوع من السجال نحتاج الى نقد جذري يتعدى حدود المناظرات الصحفية الطارئة والمبتسرة الى ما هو اعمق ، يقول جيفري ج ٠ وليمز (ان اكثر نقاد الثقافة لا يلتفتون الى النظرية السياسية ، الاقتصاد السياسي او الى علم الاقتصاد ، ربما تمتد اهتمامات اولئك الذين يعملون في الحقل الادبي الى ميادين انسانية قريبة مثل التاريخ او الانثروبولوجيا الثقافية لكن ليس الى علوم اجتماعية اكثر تخصصا ، ربما لا يكون هذا ناتجا من سوء الحظ لكن بسبب الالتزام بالمعايير الحرفية)[١]يظهر هذا التشخيص اننا غالبا نقصر فكرة الثقافة على حقول ابداعية بعينها كالادب والفن بينما هي في الواقع اصبحت مفهوما شاسعا (مثلها مثل الهواء) اذ لم يعد (المجتمع منزلا والثقافة حديقته)[٢] بل ان مثل هذا التضييق لفكرة الثقافة هو الذي يدعونا الى (الالتزام بالمعايير الحرفية) التي تمنعنا من مراقبة الانساق الاجتماعية المحايثة لانتاج الثقافة وهي انساق مؤسسة لا يمكن اغفالها واهمالها ٠ اظن ان نظريات النقد السوسيوثقافي هي الكفيلة بردم هذه الهوة فالتاريخية الجديدة او المادية الثقافية تنتقل بنا من (نقد النصوص الادبية والتاريخية الى نقد الواقع الذي انتجها وعمل على تداولها)[٣] وهذا هو ما نحتاجه بالضبط أي اننا نريد ان نفسر عجز المثقف عن تاكيد دوره في ظروف ملتبسة كالتي حدثت في العراق ولا يحصل مثل هذا الكشف الا من خلال نقد الواقع ومراقبة الظواهر الاجتماعية التي تشكل فضاء تداول الثقافة وانتاجها في آن بالطبع لم نعمد الى مثل هذه الدراسات الا نادرا ذلك لاننا نخضع غالبا لمعايير حرفية الادب والفن بينما تكمن المعضلات التي تعيق فعالياتنا الادبية والفنية خارج الادب والفن بالمرة أي ان عطل الثقافة في العراق اسبابه اجتماعية صرفة وهو الامر الذي نريد ان نتصدى له من خلال عبور مهمة المثقف (التقني) الى النقد الثقافي/ نقد السياق الاجتماعي الذي تنشأ في ظله ظواهر الابداع ادبا او فنا ، هذا ما يحدونا الى مباركة مفهوم (علم الأجتماع الثقافي)الذي تحدثت عنه الباحثة جانيت وولف (مع نهاية

التسعينات من القرن الماضي اخذ النقاد الاكاديميون في الجامعات الامريكية ينصرفون عن التاريخانية الجديدة الى اتجاهات ذات طابع سوسيولوجي ثقافي ، تتحدث عن ذلك الباحثة جانيت وولف في دراستها (الدراسات الثقافية وسوسيولوجيا الثقافة) وقد غدا علم الأجتماع الثقافي في هذا المقام مصطلحا بارزا)[٤]

لاشك اننا نمتلك دراسات في علم الاجتماع مثلما نمتلك دراسات ادبية تكاد تنحصر او تنصب على نقد النص بطريقة شكلانية تعيق انتشار الضوء النقدي الى ما وراء النص واذا ما حصل مثل هذا الانتشار فهو لا يكفي لنقد بيئات اجتماعية مضادة لفعل الثقافة ومعرقلة لاهدافها الكبرى ، ان مدارس النقد السوسيوثقافي على اختلاف تسمياتها تقدم لنا هذه الخدمة المرتجاة /نقد الثقافة من خلال نقد الواقع او المجتمع الذي افرزها ٠

وبالعودة الى واقع ومشكلات الثقافة العراقية الراهنة نحتاج الى استبدال لغة الشكوى بالكشف،الانتقال من جاهزية التبرير الى مساءلات نقدية جادة : لماذا يتأزم مفهوم الثقافة لدينا ؟ ولماذا تنكسر قيمها على صخرة منظومة اجتماعية تحتكر التاثير لمفاهيمها الخاصة ؟ يبدأ الفحص اذن بمعاينة هذه المفاهيم / الافكار التي يحاول هذا المجتمع حمايتها من لسعة الثقافة!

- **تناشز المعنى :-**

يحتل مفهوم (التناشز) في التجربة العراقية حيزا هاما ، خاصة بعد ان فصلت الدراسات الاجتماعية (علي الوردي تحديدا) مفهوم هذا التناشز اجتماعيا او (التخلخل) على حد تعبير حنا بطاطو ، ما يعنينا الان هو تناشز من نوع آخر : ما يحصل بين سعي انشطة الثقافة لانتاج (معنى) وهذا الافق الاجتماعي المعطل والقامع لاية تجربة من هذا النوع / تجربة انتاج المعنى ٠٠ بالطبع لا يكفينا اختزال القول بان مثل هذا التناشز بين وظائف الثقافة والمجتمع هو المسؤول عن عطل وعزلة الثقافي في العراق بل لابد من تتبع مراحل تدمير المعنى تاريخيا ، ولن يحصل ذلك ايضا الا بالوصول الى قاع المشكلة ودراستها على اكثر من صعيد ، علينا ان نعترف ـ بدءا ـ

بان التجربة العراقية ملتبسة وبالغة التعقيد ذلك لانك لا تستطيع ان تحدد بسهولة نوع المعضلات التي يعاني منها العراق حيث يشتبك السياسي مع الاجتماعي الى الدرجة التي يبدو فيها كل طرف سببا ونتيجة في آن ويصدق القول ذاته على الثقافة التي نحاول ان نتبين مسار صيرورتها وسط هذا الالتباس ، يضاف الى ذلك كله ما حصل ويحصل على صعيد الاثار التي تركها الاسلام السياسي خاصة بعد الفترة التي اعقبت احتلال العراق ٠٠ اجد ان هناك اكثر من صعوبة منهجية في فحص ومعاينة مسارات المشكلة التي نحن بصددها ٠٠ هل علينا الان ان نقص حكاية شعب ؟ واذا اردنا ذلك على وجه الدقة فبأي الفصول نبدأ ؟ هناك اكثر من دراما تتصاعد ، مفصل يقود الى مفصل ، مقدمات بلباس النتائج وهذه الاخيرة تصلح ان تكون مقدمات من نوع اخر ، بهذه الطريقة اذا كنا ننوي ان نسرد (قصة) فعلينا ان نعلن منذ البدء انها ستظل مفتوحة / قراءة لا غير

ان مثل هذا الاشكال يمكننا ان نعده واحدا من الصعوبات المنهجية التي غالبا ما ترافق دراسة الظواهر المتشظية وغير المنضبطة اصلا في واقعها الموضوعي ، وبالعودة الى دراسات (الوردي) التي انصبت على مشكلات الاجتماع العراقي نقول انها عانت مثل هذا الاشكال حد انها وصفت باللامنهجية وهنا لا نريد ان نبرر لاحد بل نتساءل: الا تصلح آلية المراقبة والتحليل منهجا؟أي أن نقيم (الإستقراء) بديلاً عن الإستنباط في حركة معاكسة للمنطق التقليدي،ذلك لأن الإستقراء يبدأ بالجزئيات اليومية صعوداً الى الكليات بينما الإستنباط بجموده المعهود يفترض وجود كليات مطلقة وهذا ما فسّره الوردي ذاته في دراسته (منطق ابن خلدون) معتبراً أن طفرة ابن خلدون تكمن في هذا الانتقال المفاجئ من التجريد الى المعاينة وها نحن الآن ربما نستفيد من هكذا طفرة دون أن نعلم أي عندما نسعى الى نقد الثقافة بوصفها منظومة متواشجة تسّوغ لنا الانتقال من حقل الى اخر بغية مطاردة الظاهرة التي نتوخى كشفها او تحليلها خاصة بعد ان ادركنا جمود ولا جدية النقد (الحرفي) الذي يصب اهتمامه على جانب محدد لتظل الجوانب الاخرى خارج نطاق المعاينة٠

- **بين تفكيك المعنى ولا وجوده :-**

لكي لا يحصل لبس ما بين قولنا (تدمير المعنى) وطروحات ما بعد الحداثة التي تعنى بتفكيك مركزيات واصول من بينها المعنى بالطبع ، ذلك لان مثل هذا الاشتغال ذو بعد معرفي لم تصله المجتمعات التي لم تنتج المعنى اصلا ولم تلامس تخوم مثل هذه التجربة التي قطعتها المجتمعات المعرفية مرورا بالعقلانية (الحداثة)ووصولا الى التفكيك (ما بعد الحداثة)ذلك لان تفكيك المعنى بالدلالة المعرفية الصرفة يعني استنفاده عبر آلية انتاج متحولة لا تقف عند حد او معنى نهائي ، يحصل هذا بعد ان (يتمركز) المعنى وهو لا يتمركز الا بعد ان يوجد بفعالية كاملة ، اما نحن فنتحدث هنا عن معطلات وجود المعنى في صورته البدئية وهو ما يحصل في مجتمعاتنا العربية عموما ، المجتمعات التي ما زالت تعيش تيها معرفيا ، لذا نقول :ـ اننا لا نتحدث عن تحولات المعنى بين التمركز والتفكيك بل عن ازمة وجوده اصلا ٠٠ نتحدث عن المعنى بوصفه هدفا مشتركا تنتجه الجماعة ، المعنى معادل الفلسفة التي ينبغي ان يسعى لها العمل من خلال منظومات ومؤسسات المجتمع والدولة اذ بدونه تصبح الحياة فوضى وجحيما لا يطاق وبذلك ياخذ (المعنى) دلالة المعيار الذي نقيس به اعمالنا ٠٠ اننا هنا نشير الى ازمة المعنى في سياقه الاجتماعي والسياسي وصولا الى ازمته المعرفية المحضة ، نتحدث عن تدمير هذا المعنى على أيدي اعدائه وهم من لا يجيدون انتاجه بل لا يعتقدون بضرورته انطلاقا من ان الفوضى والفراغ هما الفضاء الامثل للطفيليين وغير المنتجين.

ولأجلاء الصورة كاملة نقول : ان الدول التي تعيش حروبا غير مبررة بالكثافة التي عاشها العراق لا بد ان تعاني ازمات متعددة الوجوه في نهاية المطاف ، اما بصدد مفهمة(المعنى) يمكن ان نتساءل ببساطة : هل للحرب اية حرب معنى ؟ واذا اشتد اوارها هل ستترك فسحة لمثل هذا السؤال ؟ المعنى اول ضحاياها واخطرهم ايضا ، هذا هو المازق الذي تعانيه الكتابة عن اية حرب انها تصطدم ـ بدءا ـ بسؤال المعنى

الذي تم تدميره من خلال شعارات الايدلوجيا المحاربة وضجيج عشوائية القتل الذي لا مبرر له سوى العماء المطلق الذي يحجب اية رؤية!

- **تأويل المشكلة العراقية :-**

قد لا نبالغ اذا قلنا ان غرابة الاحداث الجارية في العراق ترفعه حقا الى مرتبة (المشكلة) بل تسوّغ لبعض الكتاب ان يطرح مقولة (العراق اللغز) وهو بهذا الوصف يحتاج الى جهود متعددة لفك طلاسم هذه اللغزية والا كيف نفسر تلاحق الويلات عبر تاريخه الطويل الذي اوصله الى واقع عنفي اختلطت فيه الأوراق حد (اللا ادرية) او التشاؤم الفاضح ٠٠ هناك اكثر من قراءة لهذا الواقع لعل ابرزها اطروحة رائد الاجتماع(الوردي) التي دارت بمجملها حول الشخصية العراقية والتي استلهم من خلالها مفهوم (الازدواج)وصراع بداوة / حضارة الذي ما زال قائما بنظره حتى عصرنا هذا ٠٠ بينما يذهب اخرون من بينهم المفكر ميثم الجنابي الى ان اصل المشكلة العراقية ترتبط بـ(هموم) العراقيين انفسهم او (هممهم)اذ يشير الى الترابط اللغوي بين (الهم) و(الهمة) باعتبار (ان الهموم تصنع الشخصية) وخلاصة هذه الطروحة (ان ولع العراقيين بالصراع يعكس مستوى الهموم الرفيعة التي ميزت وجودهم التاريخي)[٥]يذكرنا إستثمار هذا الجناس بين المفردتين (هم/همة) بما ينسب للامام الشافعي:

وأحقُ خلق الله بالهمِ إمرؤٌ ذو همةٍ يُبلى برزقٍ ضيقِ

إن مثل هذا الافتراض المقدم لتحليل مشكلة الصراعات العراقية لا يختلف كثيرا عن الافتراضات التي قدمها عادل رؤوف في كتابه (حصارات علي) معتبرا ان الخلفية التاريخية / جدل العراق وعلي (ع) / الكوفة مكانا للخلافة وغيرها من العناوين هي الفضاء الذي ينبغي ان نبحث فيه عن اصل الاشكال العراقي كما انه يشير الى قلة الجهود المبذولة بهذا الصدد معتبرا ان (الذكاء) العراقي شكّل (عجزا)او(هروبا) ازاء تشخيص المشكلات التي يعاني منها العراق حاضرا وتاريخا ولعلنا نعثر على تفسير ما لهذا العجز من خلال اطروحة الباحث (حيدر سعيد) التي وصف بها العراقيين

كونهم (الطرف السلبي) في كل ما يدور حولهم من احداث وان هذه (السلبية) شكلت (شرطا ضمنيا أسس البناء السايكلوجي للعراقيين ، ان ينتظروا الفعل ، اي فعل ، من طرف خارجي دائما ، وهكذا كنا (مفعولين) لا (فاعلين) ولا نزال كذلك)*وبصدد تأكيد (السلبية) ذاتها ينوه الكاتب والسياسي العراقي (باقر ياسين) الى ضرورة (فك اللغز المعقد الذي يقف وراء الصفات السلبية والرديئة في سلوك الشخصية العراقية والاجابة على مجموعة الاسئلة الحائرة و المحرجة التي صار يطرحها و يرددها مئات الالاف بل الملايين من الناس داخل العراق وخارجه بعد تفجر موجات الصراع الدموي الشرس الذي تمثل باشتعال الحرب الطائفية و شيوع ظاهرة القتل على الهوية) ص١٩(شخصية الفرد العراقي / باقر ياسين)، ومهما يكن من امر فان التحليلات الاجتماعية او اية افتراضات اخرى ليس بامكانها ان تقدم تفسيرات نهائية مالم تنظر الى المشكلة على انها ثقافية هيكلية في جوهرها ترافقها وتنبثق عنها تمظهرات اجتماعية وسياسية واقتصادية يمكن ارجاعها الى اسباب محددة ، ما سنفعله بالضبط هو اننا نريد ان نستجمع اطراف الصورة المشتتة في مشهد دال يختزل التكهنات لصالح التشخيص ويحد من شراهة السؤال المفتوح عبر توصيفات واقعية مستمدة من تصدعات العراق المعاصر الذي عاثت به العسكرتاريا وافسدته الايدلوجيات الطارئة والذي انتج بالضرورة تشوهات ثقافية يراد لها ان تكون مصلحا بينما هي ذاتها بحاجة الى اصلاح ٠

*سياسة الرمز / ط١/ المؤسسة العربية للدراسات / ٢٠٠٩

- **العراق تحت ثقل التأريخ :**

من الصعب ان تسقط جماعة ما تحت ثقل التأريخ تماما ومكمن الصعوبة هنا ان هذه الجماعة ستخفق حتما في صناعة حاضرها مهما أدعت أو فسرت ان ولعها بذلك الماضي له مساس بحاضرها أو من أجله فإذا دققنا النظر في مثل هذا الترابط المزعوم سنجد أن مواقفه ومبرراته مبنية على أيدلوجيا ما لا على أساس حاجة

عضوية كما يدّعون،في عراقنا المتخم بذاكرة تأريخية مستعادة غالبا ما تظهر هذه المسألة بوضوح سواء على مستوى المظاهر العامة أو الفكر والثقافة والدين فعلى مستوى المظاهر مثلا نجد أن أغلب المدن والأحياء والشوارع تحمل أسماء ذات حمولة تأريخية إستذكارية (ذي قار/القادسية/نينوى/صلاح الدين/ميسان/بابل/سر من رأى)ولا ننسى الاحياء في العاصمة انموذجا (المنصور/اليرموك/أور/طارق/المتنبي/المأمون)والأمر ذاته مع الساحات والشوارع (الأندلس/عقبة بن نافع/الواثق/الفتح) او (شارع الرشيد/الخلفاء/أبو نؤاس/عمر بن عبدالعزيز)وسواها كثير في المدن والقصبات العراقية،بالطبع إن مثل هذا المنحى الإستذكاري للتأريخ هو أحد مظاهر وإفرازات الفكر القومي الذي حكم العراق لعقود طويلة وقد يصدق مثل هذا التأويل تماما إذا كانت المسألة عند هذا الحد غير أن الأمر يتعدى حدود التسّميات الى نمط التفكير السائد فإستدعاء التأريخ والمكوث فيه بل والسقوط تحت تأثيره له منحى ثقافي أبعد وأعمق والغريب في العراق انه بقي محطة لإشكالات تأريخية تجاوزها سواه بينما هو إحتفظ بها حد التخمة و للتدليل على مثل هذه المسألة نذكر مثلاً ظاهرة(التشيع الصفوي) الذي نشأ في أيران أيام الدولة الصفوية،يقول عادل رؤوف ما مفاده (اللافت أن العراق كان الأكثر إنفراداً بالتشيع الصفوي..فهذا التشيع الذي نشأ في أيران تراجع في وعي الأمة الأيرانية كثيراً..وبقيت المؤسسة الدينية في العراق تتمسك به وحدها،عنيدة في الدفاع عنه،مصرة على رعاية رواده)حصارات علي ص٥٤٧، والأمر ذاته ينطبق على جدل الخلافة الأسلامية فعلى الرغم من مرور كل الزمن الذي مر لم يزل هذا الجدل محتدماً في واقع الناس الى الدرجة التي يترتب على ضوئها واقع المكونات وأفكار السلطة والحكومة بطريقةٍ ما،يعني ذلك بإختصار ان العراق ظل حاضناً لجدل التأريخ وإشكالاته فهي لا تغادره مثلما غادرت غيره،يترتب على مثل هذا المنحى أكثر من نتيجة لعل أخطرها أن هذا الجدل العراقي الذي يستحضر كل جدل التأريخ لا يوفر فرصة لصناعة المعنى أو الراهن الا من خلال ذلك الإستذكار وبالتالي فأن الثقافة

المجتمعية ستصبح ثقافة ذكرى لا ثقافة حضور بل تعتاش على هذه الذكرى وتتعايش معها لتهمل صناعة الراهن بالمرة،من هنا تنشأ أزمة عطل هذا الراهن ومن هنا أيضا تتوفر الفسحة المناسبة لعودة كل الثقافات التقليدية بضمنها الخرافة والإنقسامات المذهبية وسواها،خلاصة القول هنا ان الجماعات التي تعيش تحت وطأة تأريخها أو تهرب بأتجاهه بعد الفشل في صناعة حاضرها وعدم وجود أي مشروع لمثل هذه الصناعة انها توفر إمكانية إنعاش نوعين من الفكر:القومي الذي يستعيد التأريخ بوصفه مفاخرة لا غير والديني التقليدي الذي يستعيد كل ما هو إشكالوي لينعش أسباب الإنقسام لا أسباب الوحدة والتماسك وهذان الخياران هما اللذان حكما العراق لفترات طويلة، ما يعني أن فكر التنوير عانى ويعاني أزمة حادة في ظل مثل هذا التقابل كما أن فكرة الحياة ذاتها تتأزم لتصبح خلاءً من أي معطى أو معنى يسهم الناس في بنائه من خلال جهودهم الذاتية بل كيف يحصل مثل هذا البناء وهم يتلفتون الى الوراء ولا شيء غير الوراء ليتقاعس وجودهم على أساس مفارقة من نوع:تأريخ طويل ويوم شاغر! ألسنة تستذكر وعقول تتلفت!

- **الترميز والبطولات الزائفة**

ربما بسبب إستفحال يوتوبيا التأريخ تبرز ظاهرة الترميز في العراق بوصفها عادة مستحكمة في الوعي الجمعي العراقي ويُراد منها خلق رموز أسطورية في دلالتها إنطلاقا من تبجيل تأريخي لهذه الرموز أو تضخيم سياسي/بطولي يتم على أساسه تصفية رصيد الشعب والأمة من أية أهمية لإضفائها كاملة على ذلك الرمز أو البطل وهو منحى يؤكد في أبسط ما يعنيه على الدونية التي تمارسها الجماعة تجاه نفسها،ذلك لأن الرمز إختزال لكل طاقات الأمة وتعبير عنها في آن حيث يهدف المرمزون غالبا الى الإستظلال بمظلة رمزهم ليمارسوا سطوتهم على آخرين من خلال إنتمائهم لهذا الرمز،بتعبير آخر أن المنتمي الى رمزية ما سيكون ظلها في منطقته أو مدينته وبالتالي فهي لعبة إفراغ وإمتلاء:إفراغ الذات من أهميتها لإكتساب هذه الأهمية من طريق آخر،ربما يكون مثل هذا السلوك المرضي واحدا من أسباب

إنتشار ظاهرة المواطن الحزبي/الأيدلوجي الذي يمارس تعسفه على الآخرين لا بقوته هو بل بقوة الأيدلوجيا التي يستظل بها،يعني ذلك أن هناك نوعا من التناسخ بين الرمز ومؤيديه أو صانعيه على وجه الدقة كما أنه الأمر الذي يفسر شيوع الرمزيات في واقع العراق المليء دوماً بالصور الكبيرة للقادة الجدد الذين حلوا بديلاً عن كارزما سياسي كان بالأمس يشغل الساحات ذاتها،وبعيدا عن شهوة التناسخ هنالك ما هو أخطر في هذا المنحى التبجيدي السائد عراقيا بمعنى أن السعي نحو صناعة أبطال مزعومين ينم عن عجزٍ ما في الوجدان الجمعي للأمة فالبطولة الحقيقية ينبغي أن تكون للجميع لا لفرد وهذا هو المعنى الذي تعرض له (بريخت)في مسرحية (غاليلو) من خلال حوار الأخير مع (أندريا) أحد أبطال المسرحية:

غاليلو : تعيس ذلك المجتمع الذي يخلو من أبطال

فيرد عليه (أندريا) : لا، إنما تعيس ذلك المجتمع الذي يحتاج الى أبطال

إذ يحدد (بريخت) هنا معنى البطولة بأنها (نتيجة عدم نضج المجتمع لأن البطل الفرد في هذه الحالة يتوهم أن في إمكانه التحكم في مسار التأريخ)*وهذا ما يحصل في العراق غالبا إذ نتوهم نحن أيضا أن لدينا أبطالا (تأريخيين) لنهدر من خلال وهمنا هذا إمكانية تدخلنا في صناعة الأشياء كما نهدر القوانين الموضوعية والعلمية التي تصنع التأريخ ذاته.

*المثقف العربي بين غربة الوطن واغتراب الوجود / علي محمد اليوسف /مجلة دراسات فلسفية العدد ٢٣ لسنة ٢٠٠٩

- **الغرائزية .. (لا وعي اسود)**

هذه الكلمة التي اطلقها الباحث علي شريعتي(لاوعي اسود) تصلح للانطباق على شرائح واسعة من المجتمع العراقي ، شرائح يصفها البعض ب (الاغلبية الصامتة) او الكتلة البشرية الجاهزة للاستثمار السياسي ايا كان نوعه وهي تتمتع ب (لا انتباه) غريب تذبل ازاءه اسئلة الوطن والمصير ، ما يميزها انها جماعة معاش ترنو لحاجاتها الاساسية فقط لا بوصفها حقوقا بل بوصفها (اعطيات) ! اما كلمات

المصير و المعنى فهي ترف قي نظرها يتصدى لها متطوعون كالكتاب والفنانين وهؤلاء حالما يتعرضون لازمة يجدون ان لا احد معهم لانهم تطوعوا لاحلام فردية ونرجسيات لا تعني احدا من الجماعة ، هذا النوع من السلوك الجمعي سهل مهمة تدمير المعنى وسخف فكرة انتاجه او السؤال عنه على الاقل ، فالغرائزي نفعي بالضرورة وقصير نظر بلا شك وهو صيد سهل للايدلوجيات المتغالبة لانها تغريه باشباع غرائزه وسد رمق معاشه مقابل صمته وتنازله عن أي معنى حتى لو كان هذا الاشباع بمال حرام تتم تسوية حرمته بذرائع شتى ! على ضوء هذه المداخلة يمكننا تفسير حتى الظواهر التي اطلقت على نفسها (دينية) في العراق وهي كما يسميها الراحل هادي العلوي (غرائز دينية) يجمع اصحابها (بين غريزة الجنس والمال كما هو حال الجماعات العراقية برمتها) وقد لا نحتاج الى برهان ازاء هكذا فساد كالذي يحدث في ظل جماعات دينية ! ولا تفسير للظاهرة سوى غرائزية هذه الجماعات لينشأ تضامن غريب وصامت بطبيعة الحال بين سياسيين غرائزيين وجمهور غرائزي على الطرف الاخر ! ربما هذه واحدة من صور الرحى التي تطحن المعنى وتحول الحياة برمتها الى ساحة صراع محموم في ظل لا وعي اسود !

(١)
منحى إجتماعي / سكاني
جدل الجغرافيا وتناشز الأمكنة

شهدت المنظومة الاجتماعية في العراق أكثر من حركة هجرة وبالمراقبة الدقيقة لهذه الحركة نجد أنها تصادمية طاردة في الوقت الذي انقسمت الى نوعين :

١ـ هجرة وتهجير أبناء المراكز (المدن) إلى خارج الرقعة الوطنية (العراق)

٢ـ سد الفراغ بهجرة أبناء الريف إلى هذه المدن .

يمكننا أن نرصد هجرة أبناء المدن إلى خارج البلاد عبر أربع موجات رئيسية : الأولى في خمسينات القرن الماضي التي شملت يهود العراق من خلال تهجيرهم إلى فلسطين أو بتسهيل هجرتهم في أحسن الأحوال ، الثانية بعد سيطرة البعثيين على السلطة في السبعينات أما الثالثة رافقت اندلاع حرب الخليج ١٩٩١ ، والرابعة بعد سقوط نظام صدام في ٩ نيسان ٢٠٠٣ يضاف إلى هذه الهجرات الأربع تهجير عدد كبير من العراقيين إلى إيران (المسفرين) وهي هجرة مفتوحة امتدت لأكثر من عقدين (السبعينات والثمانينات) كما أن هناك هجرات فردية متعاقبة خارج هذه الموجات المعروفة [٦].

إن الفراغ الذي لا بد أن تتركه مثل هذه الهجرات داخل المدن والقصبات تم تعويضه بهجرة داخلية من الأرياف إلى المدن وقد حدث ذلك عبر موجتين كبيرتين : الأولى في زمن الزعيم الراحل عبدالكريم قاسم والثانية امتدت على طول فترة حكم (صدام حسين) الذي استثمرها لأغراضه السياسية ، ما يهمنا الآن هو تداعيات هذه الحركة التعاقبية داخل المجتمع العراقي إذ يمكن الانتباه على الأمور التالية :

١ـ إن الصنف الأول من الهجرة أو التهجير كان يهدف إلى (تصفية) رأس المال الحضاري العراقي ، ذلك لأن أغلب هؤلاء المهجرين كانوا من حملة الشهادات الأكاديمية العليا إضافة إلى أعداد كبيرة من المثقفين العراقيين الذين تسربوا خلال هذه

الموجات المذكورة ، الأمر الذي ترك آثاره الواضحة على بنية الثقافة العراقية فيما بعد.

٢ـ إن ذلك الصنف من الهجرة (الأولى) كان عنفيا بدرجة قاسية حيث رافقته مصادرات لأملاك المهجرين وطعون في ولائهم الوطني تحت تبريرات عرقية ، أو دينية (طائفية في بعض الأحيان) أو ثقافية بحكم الإزاحات الأيدلوجية التي مارستها السلطات ضد مثقفي اليسار في بادئ الأمر ثم جميع المثقفين في الفترات اللاحقة،الأمر الذي غذى حاضنة العنف في العراق بل سهل انتقالها من عنف السلطة السياسية إلى ثقافة المجتمع فيما بعد حتى وصلنا الى نوع من انواع (العنف الانتقامي والتوتر النفسي المتواصل) على حد تعبير (باقر ياسين) .

٣ـ إن الفارق ألقيمي بين قيم مدنية مهاجرة وأخرى ريفية وافدة أدى بالضرورة إلى اختلال وفراغ المنظومة القيمية بشكل عام الأمر الذي سهل تعويض هذا الفراغ بقيم أيدلوجية زائفة ذلك ما يكشف لنا أن وراء حركة الهجرة والهجرة المقابلة مقاصد سياسية ما زلنا نعاني آثارها حتى اليوم .

٤ـ استغلال أبناء الأرياف الوافدين إلى المدن سياسيا وزجهم في الترسانة العسكرية خاصة في زمن النظام السابق الذي خطط لحروب طويلة الأمد تحتاج إلى مثل هذا الحشد البشري إضافة إلى استغلالهم بما هو أبشع من خلال تجنيدهم في أجهزة الاستخبارات والأجهزة الحزبية التي تعتمد الوشاية والتجسس أسلوبا لعملها ولا ننسى بهذا الصدد نشوء طبقة جواسيس من أصول ريفية أطلق عليها الناس في جنوب العراق (شماشمة) في إشارة ساخرة إلى حاسة الشم الأمني التي يتمتع بها هؤلاء !

٥ـ إن استمرار هذا الجدل يشير بالضرورة إلى أننا ما زلنا على أولى عتبات صراع الإنتاج الحضاري : بداوة / حضارة وهو المفصل المهم الذي اعتمده الدكتور الوردي بالاستناد إلى أطروحة مفكر الاجتماع (ابن خلدون) .

- **التداعيات الثقافية**

يظهر لنا الشاعر السبعيني (شاكر لعيبي) في كتابه (الشاعر الغريب في المكان الغريب) اهتماما خاصا بهذه المسألة إذ يعتبر تدفق الريف على المدينة وفر فرصة ثقافية لأبناء هذا الريف المهمش بل يعده ثأرا تاريخيا من المدينة التي يعتبرها مركزا مستبدا إزاء هوامشه والأرياف دون أن يبالي (لعيبي) بفارق القيم بين الحاضنتين وآثار هذا الفارق ثقافيا فيما بعد ، يقول : (كان الريف يكتسح الساحة الثقافية بتقاليده غير المشذبة وأسمائه الفطرية وتدفقه العاطفي ومكبوته الجنسي وأحلامه) [٧] بل يذهب ابعد من ذلك عندما يحيل المدن والمدنية إلى عقلية عثمانية آفلة (لقد كان التدفق يحطم آخر معاقل العقلية العثمانية) إن مضمون مثل هذا الكلام لا يذهب بعيدا عن النظرة الأيدلوجية الطاردة التي مارستها الحكومات المتريفة إزاء منظومة المدنية والمدن في العراق فالحاكم السياسي القادم من الهوامش في اغلب الأحيان لم يخف نظرته المستريبة تجاه المدن وأبنائها وهذا ما لمسناه من خلال استجلاب أبناء جلدته إلى مفاصل الدولة والحكومة لأنهم الأكثر ثقة بالنسبة إليه ، إن هذه النظرة كرست فيما بعد حكومات عائلية مناطقية أدت إلى المزيد من الفرقة والتهميش ، يستدل الشاعر (لعيبي) في سياق إطروحته بمثال الشاعر الفرنسي (رامبو) القادم من أرياف فرنسا لا من باريس العاصمة وينسى الفارق بين المدينتين العربية والغربية ، المدينة الغربية تضفي ملامحها على الريف حد اختفاء الفارق بينما الريف لدينا هو الذي أضفى ملامحه على المدينة حتى صارت لدينا مدن ريفية بكامل معنى الكلمة ، ثم يعرج الكاتب في السياق نفسه على (بنات المحافظات) في سبعينات القرن الماضي إذ يعتبرهن زحفا أنثويا باتجاه العاصمة بغداد .

الآن بإمكاننا أن نسجل مساءلاتنا إزاء هذه الأطروحة ، ترى ما الذي تحقق بعد أن تريفت هذه المدن وتحطمت (آخر معاقل العقلية العثمانية) على حد قول شاكر لعيبي ؟

أليس هناك ما يشبه التلازم الشرطي بين الثقافة والمدنية أي في حال اختفاء هذه المدنية وأنحلالها يتأزم معنى الثقافة ومفهومها ؟ وفي الاتجاه ذاته نتساءل أيضا:كيف يمكننا أن نتصور مدنية بلا مدن ؟ يطرح الناقد ياسين النصير في مقاله (البحث عن سؤال التجديد) ثلاثة مقومات لهذا السؤال أولها (العمق الميثولوجي لأية كتابة جديدة) وثانيها (البعد الفلسفي والمعرفي للنص) . ثالثها حقيقة راسخة (أن أي نص لا يبنى دون فهم علاقات المدنية) بل (بدون مدينة لا يمكن لأي نص أن يؤلف سؤالا للتجديد)[٨] .. يظهر لنا مثل هذا التشخيص إن التباس المنظومة الاجتماعية في العراق وتصادم حركة الهجرات نتج عنها فراغ (مدني) اثر بالضرورة على فاعلية الثقافة ومعناها بل إن الأزمة الثقافية التي نعيشها الآن على صلة أكيدة بأزمة مجتمعية ما تزال تعاني صراعا قيميا لم يحسم حتى هذه اللحظة ولعل احد إفرازاته التي لا يستهان بها سؤال الهوية الذي يتأثر بمثل هذا الفراغ القيمي والثقافي في آن كما أن اختفاء المدن وغياب قيم المدنية يعني فيما يعنيه اختفاء قاعدة البناء الثقافي في البلد وهذا ما سنعاود تفصيله في موضع قادم.

(٢)

فساد السياسة ومتطلبات البناء الثقافي

هناك اكثر من فكرة ازاء علاقة الدولة بالثقافة فالحكمة التقليدية تقول بان (الثقافة وليس السياسة هي التي تحدد نجاح المجتمع) اما الحقيقة الليبرالية المركزية فتؤمن (بقدرة السياسة على تغيير الثقافة وانقاذها من المطبات)[٩] بمعنى ان الدولة هي (العامل الرئيس في تشكيل ملامح المجتمع وليس العكس)٠٠ يحتل مثل هذا الجدل اهمية خاصة في التجربة العراقية التي ما تزال تعاني تداخلا فادحا بين مفهوم الدولة والحكومة اذ اننا ومنذ تاسيس الدولة العراقية في عشرينات القرن الماضي كنا نطمح الى ارساء تقاليد مؤسسات راسخة لا تتاثر بتعاقب الحكومات غير ان الذي حصل ان هذه الحكومات التهمت فكرة الدولة من خلال شخصنتها او مصادرتها لصالح انظمة ايدلوجية تدعي تمثيل كل شئ بطريقة احتكارية لا تدع شيئا خارج وثوقيتها التي تمارسها وهو الامر الذي ظهر جليا صبيحة ٢٠٠٣/٤/٩ عندما انهارت الدولة ـ على افتراض وجودها ـ بانهيار الحكومة القائمة انذاك ومهما يكن من امر فان مطالبات الثقافة ما تزال حتى هذه اللحظة تتجه الى الحكومة او الدولة المفترضة أي ان المثقف وعلى مر ادواره كان ينتظر من هذا الكيان ـ دولة او حكومة ـ ان يسهم في انعاش البناء الثقافي للامة وكان في كل مرة يخيب امله وينقطع خيط رجائه الذي يشده لهذا او ذاك ٠٠ والان علينا ان نتساءل هل حقا كانت الحكومات العراقية قادرة على استيعاب فكرة الثقافة او الشعور باهمية تنميتها لاجل دعمها ومساندتها ؟هل تدرك الحكومات المتعاقبة اهمية الثقافة في تغيير المجتمع واكسابه هوية انضج وارقى ؟ علينا هنا ان نتذكر كيف كانت تنشأ الطبقات الحاكمة لدينا ؟ من اين يجيء الحاكم ؟ هل له صلة بالمعرفة ، هل يخرج الحاكم لدينا من معطف اكاديمي مثلا ؟ ام ان سدة الحكم تظل سائبة بانتظار من يمتطيها على حين غرة ؟ واذا كان الامر هكذا فما علاقة طبقات سياسية من هذا النوع بمطالب الثقافة ومقاصدها ؟ يقول د٠ سيار

الجميل (لقد عرف العراق ابان النصف الثاني من القرن العشرين عصابات واولاد شوارع ورعاع ومخبولين واصحاب سوابق وذوي عاهات واشقياء من الذين لم تكن لهم القدرة على العمل الا في الاوكار القميئة تحت الارض فظهر منهم ساسة وبعض حكام ساهموا عن قصد وسبق اصرار بانتاج كل البلايا والرزايا)[١٠] والى التشخيص ذاته يذهب المفكر ميثم الجنابي عندما يرصد التجربة السياسية في العراق من خلال صعود الراديكاليات الثورية التي (جعلت من الفئات الرثة وغير الناضجة طبقات محتوم عليها قيادة الدولة والامة)[١١] بل أن مثل هذا المنحى اللاعقلاني في السياسة العراقية (جعل الأطراف مركزاً والفئات الرثة نخبة)ثم يستطرد (الجنابي)لتتبع آثار هذه الكوميدية السياسية في العراق لنخلص من خلال اطروحته الى تشخيصين أساسيين:

١- إن صعود مثل هذه(الطبقات الرثة) الى سدة الحكم أدى الى (إنقطاع تاريخي بنيوي)ما تزال آثاره بادية على منظومة الفكر والسياسة والإجتماع والثقافة في التجربة العراقية التي نحن بصدد مساءلتها الآن.

٢- إن مثل هذه الشراذم التي أصبحت (نخباً)حاكمة (جعلت من تدمير الطبقة الوسطى هدفها الأساس) ولا يُخفى على دارس أن هذه الطبقة الوسطى هي فضاء صناعة المعنى وتداوله في التجربة الثقافية وأن تدميرها أو محاولة ذلك يُعد خطوة مدروسة بإتجاه تدمير (المعنى) ذاته،وهذا ما نجد آثاره اليوم على تجربتنا الثقافية في العراق حيث إختفى الحاضن والفضاء الذي تتحرك من خلاله ممارسات الثقافة وتمثيلاتها،والملاحظ هنا أن هذه (الطبقة الوسطى) لا يمكنها أن توجد أو تنتعش الا في ظل قيم مدنية وقد رأينا كيف تريفت هذه القيم وتم إستبدالها بقيم أيدلوجية زائفة بعد تهجير أبناء المدن الى خارج الرقعة الوطنية بأكملها عبر موجات تحدثنا عنها في السطور السابقة.

وفي السياق ذاته يقدم الدكتور سليم الوردي في كتابه المهم (ضوء على ولادة المجتمع العراقي المعاصر) كشفه الخاص حول طبيعة الصراع السياسي في العراق والطريقة

التي يتم من خلالها الوصول الى سدة الحكم إذ يقول:(جاءت فصول العقد الجمهوري المتعاقبة لتقلب المشهد الطبقي عاليه سافله حيث راحت تطفو على السطح مجاميع مصلحية طارئة لا تكاد تستقر طغمة على دست الحكم حتى تنبري لها طغمة أخرى تنافسها على غنائمها)[١٢]..تكشف هذه الآراء مجتمعةً أن الطبقة السياسية في العراق تتراوح بين أن تكون (عصابات وأولاد شوارع) بحسب تعبير سيار الجميل أو (فئات رثة) بحسب توصيف ميثم الجنابي والذي لا يبتعد كثيراً عن توصيف الوردي بأنها (مجاميع مصلحية طارئة)..(مجهولون) كما يقول حسن العلوي في إحدى مقابلاته أو (سياسيو الصدفة) على حد تعبير الكاتب السرياني (روبيني بيت شموئيل).. إن مثل هذا المنحى الانقلابي اللاعقلاني في الحياة السياسية الذي يسمح بصعود الطارئين إلى دفة الحكم لا يدع مجالاً للعقلاء أو العقلانية مثلما لا يوفر أية فرصة للحديث عن ذائقة ثقافية تتطلع إليها شرائح المثقفين من فنانين وأدباء،إذن أين يقع مثل هذا الطموح إزاء طبقة سياسية من هذا النوع..هل يمكن أن نؤمن بقدرة مثل هذه السياسات على(تغيير الثقافة وإنقاذها من المطبات) بل هل يمكن القول:إن دولة بهذا الوصف الذي ذكرناه تمثل عاملاً رئيساً (في تشكيل ملامح المجتمع)الذي ننشده؟ أم أنها كرست ثقافة السرقة بدلاً عن الأمانة/سرقة السلطة قبل غيرها وهي مفتاح كلِّ شيء في بلد مثل العراق؟.

(٣)
منحى إقتصادي
مأسسة الثقة و حاجة الاقتصاد الى فضائل

ينعكس الصراع السياسي /السلطوي على منظومة القيم سواء كانت اجتماعيه او اقتصادية او ثقافية بل ان هناك تعالقاً بنيوياً بين هذه التوصيفات جميعها ،يمكننا ان نتأمل هنا دلالة (الثقة) التي طرحها (فوكوياما) لنعرف من خلالها مستوى التواصل بين ثقافة بلد ما واقتصاده اذ يقول في كتابه الذي يحمل العنونه ذاتها /الثقة (ان ازدهار الامم وكذلك قدرتها على المنافسة تتأثر بخاصية ثقافيه مهيمنه واحدة :هي مستوى الثقة المتأصل بالمجتمع) وفي السياق ذاته يظهر اهتماماً (بالدور الذي يلعبه حضور او غياب الشركات التجارية متعددة الجنسيات mnc2 والتي يرى فيها رمز للثقة الاجتماعيه الفاعلة وشرطاً مسبقاً للنجاح في الاقتصاد العالمي)[١٣] يستفيد فوكوياما في هذا الموضع من فكرة ان المجتمع يعني (مأسسة الثقة) كما يستفيد في الوقت ذاته من الافكار الاخلاقيه التي تؤكد ان الرفاه الاقتصادي يحتاج الى فضائل اجتماعيه بل ان غياب هذه الفضائل (يخلق عقبات هائلة امام خلق مؤسسات عامة) .. قد نكون اكثر قرباً من غيرنا الى مثل هذه الطروحات التي تعتبر ان قيم الفضيلة طريق موصل الى الرفاه الاقتصادي والاجتماعي على السواء ذلك بحكم الثقافات الدينيه والاخلاقية التي شكلت رؤيتنا التأريخيه ولم تتدخل كثيراً في تشكيل رؤية الحاضر / حاضرنا الذي يعاني اشد انواع ضبابية الرؤية . الآن وعلى ضوء هذه المقدمة النظرية يمكننا ان نساءل المنظومة الاجتماعيه في العراق عن فاعلية (مأسسة الثقة) وهل عملت الحكومات المتعاقبه على تأصيلها ؟ هل انتبهنا على عمق العلاقة بين الفضائل والاقتصاد؟ بل هل يشغل مثل هذا الكلام حيزاً ما في تفكير (المجاميع المصلحية الطارئة) التي حكمت البلاد ؟ ان ماحدث هو عكس هذا المسعى تماماً بمعنى ان (أللاثقة) هو المضمون الذي ارادت ان تكرسه حكومات ساعية الى السلطه لاغير وكان سبيلها الى ذلك تشجيع ثقافة الجاسوسية والتلصص من خلال العملاء السريين

ودوائر الامن الحكومي التي تزرع عيوناً من داخل المجتمع على المجتمع ذاته، يضاف الى ذلك انتعاش ظاهرة (المواطن الحزبي) الذي يحظى بأمتيازات خاصة مقابل خدمة التلصص التي يقدمها للنظام الذي ينتمي اليه ، بهذه الطريقة تم القضاء على واحده من اهم الخصائص الثقافية للمجتمع (الثقة) مثلما تم تعطيل امكانية العمل الموصل للرفاه الاقتصادي على حد ترسيمة فوكوياما بهذا الموضوع، لقد نشأت على انقاض هذا العطل الاقتصادي الشامل تراجع قيمة (العمل) لتحل محلها وسائل اخرى للكسب السريع وبالفعل منذُ ثمانينات القرن الماضي اصبح الانتماء للنظام السياسي او الحزب الحاكم والاستفاده من امتيازاته هو الطريق الاسهل والاسرع ثراءً من العمل في مجالات اخرى كالزراعه او الوظيفه العامه .

ان مثل هذا المنحى الاقتصادي الفاسد لا يضير (المجاميع المصلحية الطارئة) شيئاً بل لا يعنيهم امر النتائج التي تمخضت عن ثقافة الكسب السريع بدلاً عن ثقافة العمل وبأمكاننا ان نشخص بعضاً من تلك النتائج:-

١- ان ثقافة الكسب السريع لدى المواطن تعطل عقلية الانتاج بل لا يبقى مبرر لتنمية مثل هذه العقلية او الاجتهاد من اجل انضاجها اذ تتحول الرغبة كاملة الى شراهة الاستهلاك والافراط فيه .

٢- ينتج عن مثل هذا المسعى هدر الخبرة بحيث تصبح فائضاً لا حاجة لها مادام الانتاج معطلاً[١٤] .

٣- تصبح مثل هذه الثقافة حاضناً للفساد بل هي الفساد عينه وهو الامر الذي يمكن ان نفسر على ضوئه استشراء الفساد المالي في العراق قبل وبعد سقوط الدكتاتورية ذلك لانه اصبح (ثقافة) مجتمعية يسعى المرء من خلالها للاثراء بالطريقة السهلة والسريعة التي اثرى بها من سبقوه دون ان يجد ضيراً في ذلك.

على ضوء هذه المداخله يمكننا ان نتأمل الصورة : كيف يعيش المجتمع بلا فضائل يحتاجها العمل /الاقتصاد مثلما تحتاجها مرافق الحياة جميعاً ، وبالعودة الى

موضوعة الثقة بوصفها واحده من المعاني التي طمستها السياسات نتسائل : هل يرجى من الانقلابيين ان يعملوا على (مأسسة الثقة) خاصة اذا ماعرفنا ان فعل (الانقلاب) قائم اصلاً على مباغتة وغدر الآخر ؟ هل يثق الانقلابيون ببعضهم ؟ وأذا كان الجواب بـ (كلا) هل يربون انصارهم على ثقة مزعومة قد توقعهم فريسة لانقلاب مضاد ام ان الثقه بوصفها فضيلة اخلاقية تصبح عند مثل هؤلاء اللصوص رديفاً للغفلة ؟ للأسف نقول ان هؤلاء غدروا بالمجتمع من خلال تلقينه دروساً سيئة مثلما غدروا بخصومهم السياسيين من خلال قتلهم او سحلهم في الشوارع عبر نوبات صراع محموم كان واحداً من ضحاياه (المعنى) الذي تم تدميره بأكثر من طريقة وطريقة .

- **السرقة بديلا عن العمل :**

يعد هذا العنوان المثير للمفارقة واحدا من النتائج التي نجمت عن خراب أخلاقي أدى بالضرورة الى خراب أقتصادي بل وثقافي أيضاً،ما نريد أن نقرره الآن هو أن هذه الترسيمة التالفة كانت درساً سياسياً تم تلقينه للناس عبر أدوار ومراحل..السرقة لم تقف في حدود الذي فسره رائد الاجتماع العراقي(الوردي)من خلال فحصه لعلاقة الفلاح بمالكي الأرض والحكومة معاً إذ إعتبر الخيانة في ظل مثل هذه الاضطرارات (عادة متأصلة في خلق الفلاح لا يمكن أن يتجنب عنها فهي ضرورية له كي يبقى هو وعائلته على قيد الحياة)[١٥]..إن ما حصل في العراق لاحقاً تجاوز مثل هذه الحدود الضيقة ليصبح سلوكاً سياسياً أنتج بالضرورة ثقافة مجتمعية تعتمد السرقة والأغتصاب سبيلاً للوصول الى المطالب وليس العمل الدؤوب الذي يعتمد التدرجات المشروعة في الوصول الى أي مطلب..يمكننا أن نستنير لإجلاء هذا المعنى بمقطع من محاكمة نائب العريف(حسن سريع)الذي قاد إنقلاباً أيام عبدالسلام عارف إذ سألته المحكمة:

- كيف تتقلد رتبة ملازم أول وأنت نائب عريف؟

أجاب :

- وكيف تقلدَ عبد السلام عارف رتبة مشير وهو برتبة عقيد؟

يكشف مثل هذا الجواب أن الراحل (حسن سريع) أدرك مجانية المعايير في العراق وخرافية الرتب الممنوحة جزافاً وهو السلوك الذي مارسته الطبقات الرثة كي تصبح (نخباً) حاكمة كما أن مفاد هذه المجادلة يكمن في أن (سريع)مارس ما مارسه أعلى هرم في السلطة آنذاك (عبدالسلام عارف) نفسه لذا لا ينبغي لأي قاضٍ أن يسأل الناس عن جرم مارسته الحكومة سلفاً..هنا ينحرف مفهوم السرقة من إعتياش المضطرين (الفلاح إنموذجاً) الى سرقة السلطة/المناصب/الألقاب والأمتيازات،أن محاولة الراحل (سريع) تكشف حقيقة أن الناس يقلدون حكامهم،خاصة وأننا مجتمعات أبوية تأخذ فيها الدولة أو الحكومة مرتبة (الأب)الذي ينظر له الأبناء بإعتباره تجربة سابقة،يتجلى أثرهذا المعنى في حوادث النهب التي رافقت حروب النظام السابق حيث يمكن تفسير ذلك على أن الدولة الغازية/دولة تنهب دولة مجاورة لا يمكنها أن تمنع منتسبيها عن فعل النهب الذي مارسته هي نفسها،حدث هذا في غزو الكويت عندما سرق الجنود ممتلكات الدور المهجورة وعند دخول الجيش ذاته الى مدينة (المحمرة) في الحرب العراقية الإيرانية إذ ان القادة الغزاة لا يمكنهم منع صغار الجند من ممارسة الفعل ذاته،هذا جانب من درس أخلاقي مشوه قدمه السياسيون في العراق لمواطنيهم مستغلين بذلك أمية وسذاجة أغلب الشرائح الإجتماعية التي إستجابت لمثل هذه القسوة كما انها صورة من صور الغرائزية التي تحدثنا عنها ،ولإجلاء هذه المسألة بصورةٍ أوفى يمكننا الرجوع الى تاريخ العراق الحديث منذ حزيران ١٩٤١ وهي السنة التي وقعت فيها أحداث (فرهود) طالت أملاك وأرواح اليهود العراقيين علماً أن قطعات الجيش البريطاني كانت موجودة خارج بغداد وقد إمتنعت عن التدخل تحت ذريعة (أن أعمال العنف تلك كانت أمراً داخلياً)[١٧]وهو الموقف ذاته الذي وقفته قوات الأحتلال الأمريكي في ٢٠٠٣/٤/٩عندما تم (فرهود)المؤسسات العراقية بما فيها المتاحف تحت نظر القوات الغازية دون التدخل لردع المواطنين عن السرقة وهذا ما أكده الحاكم المدني (بول بريمر) في كتابه المعروف (عام قضيته في العراق) إذ يقول

بقصد التبرير (يبدو أنه لم يكن لدى الجنود الأمريكيين الذين يزيد عددهم على ٤٠ ألفاً أوامر لوقف الناهبين)ص٢٢..أما في عام ١٩٥٨فكان المشهد نفسه صبيحة إنقلاب ١٤تموز حيث ينقل لنا (فاضل العزاوي) صورة ذلك المشهد (زحف إلوف من الريفيين الفقراء على القصور ونهبوا ما فيها ثم ربطوا الجثث بالحبال وراحوا يجرونها وراءهم في شوارع بغداد قبل أن يعلقوا ما تبقى من جثة عبد الأله على عمود الكهرباء أمام وزارة الدفاع في الباب المعظم)[١٨]..بقي أن نتذكر أحداث النهب التي رافقت إنتفاضة ١٩٩١ التي هجم فيها الناس على مخازن الغذاء ومؤسسات الحكومة لإفراغها مما فيها والغريب في هذه المسألة أن بقايا الجيش المنكسر التي لملمها النظام السابق لإستعادة المدن من يد المنتفضين مارست الدور ذاته إزاء بيوت المواطنين التي غادروها خوفاً من البطش بهم في أعقاب إنتكاسة الأنتفاضة حيث قام الجند بسرقة محتويات تلك البيوت..هذه صورة من صور (الفرهود المتقابل):مواطنون يسرقون المؤسسات وأسلحة الجيش المنكسر ليقوم ذلك الجيش بعد أيام قلائل بدخول المدن وسرقة بيوت المواطنين! مشهد غرائزي محموم بامتياز ! أما في عام ٢٠٠٣ وتحديداً في ٤/٩ يوم السقوط المعروف فقد كانت شهية السرقة تفوق الوصف إذ لم تقتصر على ما يسرقه المواطن من حاجيات وأثاث من مكاتب الحكومة بل تعدت ذلك الى سرقات سياسية مارسها السياسيون الجدد من خلال نهب الأبنية الخاصة والعامة لإستخدامها كمقرات حزبية ناهيك عن سياسة (وضع اليد) التي مارسها بعض رجال الدين المزيفين على الأراضي والمنشآت لتوزيعها فيما بعد على منسوبيهم،هذا يعني أن هناك نوعاً من الشرعنة لمثل هذه السرقات..بالطبع لا يمكن إختزال كل هذه المشاهد والتواريخ بأبتسار صورة (علي بابا) التي روّج لها الاعلام الغربي آنذاك إنما هي ثقافة مجتمعية أساسها درس سياسي فاسد مارسه الحكام على مرأى ومسمع مجتمع (خديج)كان بحاجة الى (حاضنة سياسية رؤوم)تسهر على رعاية طفل (المعنى) كي ينشأ سليماً معافى لا أن تعمل على تشويه معالم هذا الوليد من خلال إستبدال منظومة القيم بأخرى مناقضة لها في الوظيفة والإتجاه وكما نوهنا

في بداية هذه المداخلة:نشر ثقافة الجاسوسية بديلاً عن (مأسسة الثقة)/هدر قيمة العمل وتعويضها بالسرقة وصولاً الى الفساد الشامل/الحواسم/أحياء التنك التي حملت أسم معركة خاسرة ثم صارت فيما بعد مزاداً إنتخابياً تستغلها الأحزاب بدعوى أن من يفوز سوف يقوم بتمليكها لغاصبيها أو شاغليها من باب الاضطرار كما يزعمون.

(٤)

الإنـهيار التسعيني في العراق

يمكننا أن نصنف هذه المرحلة (تسعينات القرن الماضي في العراق) بانها فترة الأنهيار الشامل إذ يبدو المشهد وكأن كل تناقضات التأريخ العراقي تفجرت في هذا العقد الصاخب والضاج بمآسٍ انسانية وأخلاقية يصعب على المراقب تجميع نثارها في صورة مقتضبة إذ ليس الحصار الأقتصادي وحده العامل الأساسي في تشكيل صورة هذا المشهد التسعيني إنما تراكم فساد الفعل السياسي كان أشد ايلاما من الجوع على المنظومة الأجتماعية آنذاك ولعل أبرز مخاطر تلك المرحلة تكمن في أن النظام السياسي أعتمد منهجا منظما لتحويل (المعنويات) الى (ماديات) والمسألة هنا ليست تناقض مفردات أو صراع مفاهيم إنما هي أخطر من ذلك على صعيد التجربة الإنسانية للانسان .

إن المنظومة الأخلاقية التي يحرص عليها الناس كانت تقوم على أساس أن الأنسان يهدر المال أو يضحي به من أجل إثبات قيمة ما فالكرم ـ مثلا ـ بوصفه خلقا إجتماعيا محمودا هو فعل يؤكد إيثار (القيمة) على المال بينما تسعينات القرن الماضي إضطرت الأنسان الى هدر القيمة من أجل المال ! وهذا هو لب الخراب الذي ظهرت آثاره المروعة في العقد اللاحق / عقد الإحتلال وما بعد الاحتلال حيث إختلت المفاهيم واصبحت المعطيات المادية / المال / المكاسب بديلا عن أية قيمة معنوية ، هذه المرحلة هي واحدة من أشد مراحل تدمير المعنى فهي مأزق وضع الفكر بتجلياته المثالية والفنون التي كنا نطلق عليها (جميلة) في زاوية حرجة لا تحسد عليها ، لا يمكن أن يصار الى مثل هذه المسألة إلا عبر برامج منظمة تتمظهر من خلال سلوكيات تؤدي فعلها التخريبي على مراحل متعاقبة ولنتذكر مثلا :

١ـ مثلما دأبت السلطة على شراء الحياة / الجسد / الروح (الشهداء المظلومين مثالا) من خلال تعويض ذويهم بالمال عاودت هذه المرة لشراء العقل والرأي بالطريقة ذاتها

سواء كان هذا العقل عراقيا أو عربيا كالكتاب والفنانين المصريين الذين كانوا يتوافدون على العراق .

٢ـ شراء ذمم القادة والمسؤولين برواتب مجزية وإمتيازات هائلة مقابل خيانة ضميرهم الوطني وتحييد هذا الضمير إزاء ما يحدث أمام أعينهم .

٣ـ تحويل الحياة الحزبية الى حياة منفعية (مادية) وإفراغها من أي محتوى فكري يمكنه إنقاذ ما يمكن إنقاذه على أقل تقدير.

٤ـ تدمير معنى التضامن الأجتماعي الذي كان سائدا بين الناس بطرق عفوية في أحيائهم وحاراتهم الشعبية من خلال زرع المنظمات الحزبية وإستقطاب المنتفعين بصفة (مختارين)ليتحولوا من وجهاء منطقة الى مخبرين سريين ، ذلك كله مقابل المال حيث تحولت (الوجاهة الإجتماعية) من رمزية (القيمة) إجتماعيا الى عمل مخابراتي مربح وهي الطريقة ذاتها التي إستخدمها النظام مع وجهاء العشائر في الأرياف وسائر المدن العراقية الأخرى .

بالطبع لا يمكن نجاح مثل هذا المسعى / تدمير القيم المعنوية من خلال إستبدالها بأعطيات مادية إلا في ظل عوز وحصار إقتصادي ظالم ساهمت الولايات المتحدة في تكريسه خدمة للنظام الحاكم لا تضييقا عليه كما تدعي بل كان التضييق يقع على الناس البسطاء لتوريطهم في خدمة ومداهنة النظام على حساب مصالحهم الوطنية وقيمهم الإنسانية الآخذة بالتلف ، نخلص من خلال هذه الصورة الى نتيجتين أساسيتين :

١ـ إن حقبة التسعينات كانت التنور الأشد سعيرا في حياة العراقيين منذ تأسيس دولتهم في عشرينيات القرن الماضي وهي المرحلة الأهم على صعيد تدمير المعنى بل وهدره لصالح الأعتياش المادي (الغريزي)على حساب القيم الأعتبارية للأنسان العراقي وهذا ما سنلاحظ تأثيره الواضح على تهشيم وإحباط فكرة الثقافة في السنوات التي تلت ذلك.

٢ـ إن هذه المرحلة بالذات كانت على صلة وثيقة بما سيحدث بعد ٩ نيسان ٢٠٠٣ أي أن إنهيار الإنسان قيميا في تلك الفترة شكّل مقدمة للأنهيار الأكبر الذي عاشه العراقيون في سنوات الفوضى التي أعقبت الأحتلال حيث أدت الى إراقة المزيد من الدم العراقي بدعاوى طائفية وعرقية ليس لها سابق أو مثيل .

ولكي لا نبتعد كثيرا عن هدف مراقبة إنكسار المعنى في الحياة العراقية علينا أن نستحضر كل هذه التقابلات من أجل إيضاح معالم الصورة : هدم المنظومة السكانية من خلال ترييف المدن / هدم المنظومة السياسية من خلال صعود الطبقات الرثة الى سدة الحكم / هدم المنظومة الإقتصادية من خلال هدر قيمة العمل وإنعاش ثقافة السرقة / هدم المعنى بأكمله من خلال تحويله الى معطى مادي .. كل هذه المفارقات كانت بانتظار(لحظة الحقيقة) بالمعنى الذي قصده جورج بوش في إحدى خطاباته التي سبقت غزو العراق .

- **مشهد التسعينات الثقافي**

لأهمية هذا العقد لا بد من إيضاح صورة المشهد الثقافي الذي كانت تتجاذبه قوتان متعاكستان : اليأس والأحباط من جراء واقع الحصار يقابل ذلك بريق أمل ما في نهاية النفق المحاصر ، أمل سيتكشف فيما بعد عن أزمات جديدة .. تميز هذا العقد بانهيارات ثقافية فادحة كان من أبرزها تزوير صورة المؤسسات الثقافية المعهودة كأتحادات الأدباء والفنانين والصحافة حيث حصل هذا التزوير المنظم بطريقة (الضد النوعي) أي بأستدعاء وتشجيع فئات طارئة على الأبداع الثقافي لتعويض فراغ المشهد من رموزه الحقيقية وهو اسلوب اتبعه النظام منذ سبعينات القرن الماضي عندما استعاض عن مثقفي اليسار بآخرين لا صلة لهم بالثقافة سوى استعدادهم لتمثيل أجندة السلطة والتطبيل لشعاراتها ومنذ ذلك الوقت (السبعينات) بدأ يتراكم لدينا مشهد مثقفي الخارج الذي أتسع على مر المحنة حيث أسهمت حرب الثمانينات وغزو الكويت فيما بعد بتزويد ذلك المشهد باسماء جديدة الأمر الذي جعل بعضا من مثقفي

الداخل المحاصرين بقسوة الجوع واللامعنى يعولون على مشروع ثقافي قادم من جهة (المعارضة) الثقافية هذه المرة وللأسف نقول لقد أخفقت هذه المحاولة أيضا لأسباب كثيرة سنتطرق اليها في السطور القادمة .

وفي التسعينات ذاتها تراجعت قيمة الأكاديميات العراقية فسادت فيها الأمية بسبب هجرة الكفاءات وتردي الحياة بصورة عامة ، الأمر الذي قلل الحافز لدى الدارسين .. هناك أيضا تعقيدات على مستوى الذائقة حيث أن الحصار الذي طال المرافق الحيوية لحياة الناس لم يترك فضاء للفن والأبداع وبسبب موجة الأسفاف والتسطيح انتعشت ثقافات زائفة بالمقابل من بينها مسرح الفرجة أو ما يطلقون عليه (المسرح الشعبي) وهو عبارة عن عروض تهريجية اشترك فيها مغنو ومغنيات الغجر على يد متعهدين ومنتجين من خارج الوسط الفني،وقد لا يخلو الأمر من طرافة عندما نتذكر صعود نجم فنانة تطلق على نفسها (ملايين) في وقت إنهيار العملة العراقية حيث يبدو الأسم وكأنه نكاية بالإفلاس الشعبي العام،لعلنا لا نضيف جديدا في توصيف مفاصل ذلك الخراب سوى أن نقول أنه كان أفق أنتظار مرتقب لما سيأتي .

(٥)
بين الإحتلال والتحرير
ـ أزمة أنتاج المعنى ـ

تبدأ هذه الأزمة بالتسمية ـ بدءا ـ : إحتلال أم تحرير ؟ ينظر أغلب السياسين الجدد الى فعل التغيير الذي حدث في ٢٠٠٣/٤/٩ من زاوية (غنائمهم) فيسمونه (تحريرا) بينما ينظر فريق من الناس الى الفعل ذاته من زاوية (خسائرهم) فيسمونه (إحتلالا) ، ومهما يكن من امر هذه التقابلات الوصفية للحدث فإن المشهد على الأرض يظل أكثر تعقيدا من أي مجادلة، مشهد الدبابات الغازية وهي تمر من أمام نصب الحرية في ساحة التحرير ! .. النصب يشير الى (الحرية) والساحة تشير الى (التحرير) بينما الدبابة المنتصبة في وسط الساحة تدمغ كل هذه الإشارات ! يتساءل الناس عن مصير الدولة الى أين ؟ مثلما يتساءلون عن ملامح الوجوه القادمة وقبل ان يكتمل السؤال يظهر الملثمون على حين غرة ويقفز اللصوص الى منصة (البلاغة) ليقدموا اجابات مزورة وشهادات تحتاج الى صدقية على ارض الواقع ، المفارقة العجيبة أن الناس ظلوا لشهور عديدة بلا حكومة ! بلا أمن ولا حماية ، ظلت سكين الفوضى تحز الرقاب بينما السياسيون يبتسمون في الشاشات ، مبتشرين ومبشرين بمشروعهم العظيم (مشروع المحاصصة)!

- **أزمة إنتاج المعنى**

منذ التأسيس الأول للدولة العراقية ظهرت بوادر انتباه الى أن هناك خللا بنيويا على صعيد المنظومة الإجتماعية التي اريد لها ان تتحول من (جماعات) الى (مجتمع) وهذا ما تشير اليه صراحة كلمة الملك فيصل الأول بهذا الصدد (في اعتقادي لا يوجد في العراق شعب عراقي بعد ، توجد كتلات بشرية ..... خالية من أي فكرة وطنية ، متشبثة بتقاليد و أباطيل دينية لا تجمع بينهم جامعة ، سماعون للسوء ميالون للفوضى ، مستعدون دائما للانقضاض على أي حكومةكانت) [١٩].. هذا الكلام هو

ذاته الذي ردده فيما بعد الباحث حنا بطاطو في كتابه (تباين العراقيين وتخلخل مجتمعهم) إذ يقول : (في مطلع القرن الحالي لم يكن العراقيون شعبا واحدا أو جماعة سياسية واحدة) يتأكد لنا ان هذه الطروحات كانت المهاد الأولي لنظرية رائد الأجتماع العراقي (علي الوردي) حول مفهوم (التناشز الأجتماعي) أو (التخلخل) بحسب تعبير بطاطو ، ما يهمنا الآن هو ان نتساءل : هل بقي هذا التخلخل ساريا منذ لحظة التاسيس الأولى حتى لحظة سقوط الدولة ٢٠٠٣ ؟ ألا يكفي عمر هذه الدولة البالغ اكثر من ثمانين عاما لإنتاج معنى مشترك يتفق عليه العراقيون / إنتاج هوية من خلال عقد اجتماعي كالذي حصل في بلدان أخرى ؟ يبدو ان (الجماعات) لم تتحول الى (مجتمع) وهو الأمر الذي أغرى الإحتلال ومن جاء معه بفكرة المحاصصة التي تستثمر مثل هذه الأنشقاقات المجتمعية ، في ٤/٩ عدنا الى لحظة التاسيس الأولى / لحظة الجماعات دون ان نبلغ لحظة (المجتمع) .. ما فعله الأحتلال هو انه اعطى عمرا اضافيا لهذه الفكرة الأنشقاقية (جماعات) كما أنه أجل فكرة (المجتمع) بالضرورة او هدرها اذا صح القول .. أين تكمن المعضلة إذن ؟ المعضلة في ان هذه الجماعات (العصبوية) فشلت في انتاج معنى مشترك يسهم في رسم صورة الهوية التي تستجمع ما يسمى بالموزائيك العراقي في لوحة واحدة واذا كانت ثمة بوادر أولى لمثل هذا المسعى على صعيد الثقافة والفكر المتحرر من عقد التاريخ والجغرافيا فان معول (المحاصصة) أحبط بقساوته مثل هذه البوادر البطيئة .. ما حصل اخيرا في العراق ، عراق الجماعات لا المجتمع هو ترسيخ دولة (المكونات) لا دولة (المواطنة) والفارق كبير إذ ان دولة المكونات تنطوي على نية تأبيد انشقاق الجماعات بينما دولة المواطنة تعني فيما تعنيه ان هناك (مجتمعا) لا جماعات متفرقة ، والمفارقة هنا ان الديمقراطية التي بشر بها النظام الجديد كان ينبغي ان تقوم على اساس الفرد / المواطن لا المكون / الكتلة / الجماعة غير ان ما حصل بالضبط هو ان هذه الديمقراطية تحولت الى ديمقراطية مكونات يذوب فيها الفرد لصالح (المكون) ! والنتيجة من جراء ذلك استمرار الفوضى التي شهدناها بشقيها /

فوضى الواقع وفوضى المفاهيم والأفكار ، ربما عمد البعض الى تقليل مسافة التناقض من خلال اجتراح مفهوم الديمقراطية التوافقية وهي ليست في الحقيقة سوى (مساومات أقطاب التناثر على حساب المصالح الحيوية لأغلبية الشعب العراقي)[٢٠] ولا يخفى ايضا ان التجربة العراقية تعاني أكثر من مفارقة بهذا الصدد لعل ابرزها ما يمكن ان نطلق عليه (ديمقراطية الأصوليات) !

- **الأصوليات بديلا عن الدكتاتورية !**

قد لا يختلف اثنان على ان الديمقراطية بوصفها ممارسة سياسية واعية تعد واحدة من أنظمة الحكم الحديثة التي نشأت على أنقاض نظم اصولية بائدة غير ان العراق المحكوم ابدا بثقافة التناشز أهدر البعد التاريخي لهذه المسألة او تغافل عنه فأعاد تأهيل الأصوليات ديمقراطيا و هذه إحدى المفارقات الحادة التي رافقت فعل التغيير السياسي في العراق ، الأنتقال من دكتاتورية سياسية الى اصوليات تتمخض عنها دكتاتوريات أخرى بالضرورة.

- **لعبة افراغ المعنى :**

قد تبدو المسألة لعبة اصطلاحات ، الديمقراطية والأصولية ليسا عدوين تماما ! هناك فسحة من الصداقة يمكن ان تنشا في لحظة ما،ذلك عندما يتمرن المصطلح على مغادرة مفهومه المعتاد ، الديمقراطية ليست كما نعرفها بل بامكانها ان تكون غير ما نعرف ، ان تفرغ نفسها من مدلولها الشائع لتدل على شيء آخر خارج الإصطلاح وكذلك الأصولية ، عبر حركة بين الأمتلاء والأفراغ ، الدلالة وعدمها وهي جزء من آلية تدمير المعنى الذي قصدناه مثلما هي جزء من قاموس (مقهى سقراط) / المجانية هي فضاء التدليل الذي جمع (سقراط) المفكر بمن لا علاقة لهم به والنقيض أخو النقيض في عراق حكم على نفسه بأن يتناشز أبدا!

وبالعودة الى السؤال معكوسا : اذا كان (الديمقراطيون) يعيدون تأهيل الأصوليات براغماتيا وعلى الطريقة الأمريكية التي تحاول استثمار كل شيء لصالح مشروعها في المنطقة ترى كيف ارتضى الأصوليون براغماتية هؤلاء العلمانين الذين هم على طرفي نقيض معهم ؟ يبدو اننا ما نزال في منطقة اللغة / الأصطلاح، بيننا التجربة الحية / تجربة الواقع اصبحت عابرة للمفاهيم التي نتداولها، بأمكاننا ان نوضح هذه المسألة إجرائيا من خلال مثالين : الأصولية الدينية في العراق والقبلية التي تصب في المصب نفسه ، يروي لنا (بول بريمر) في كتابه الشهير (عام قضيته في العراق) لقائين مع شخصيات أصولية عراقية ، أحدهما في (الحلة) مع رجل دين بارز ذكر اسمه صراحة في كتابه ص٧١ والآخر في مقر سلطة الأئتلاف الموقتة مع إثني عشر شيخا من مشايخ عشائر شمر ، يقول بريمر عن لقائه برجل الدين هذا (عبر الشيخ عن امتنانه للأمريكان لأنهم حرروا العراق من طغيان صدام .. وقال إنني معجب بالديمقراطية كثيرا يجب ان يكون العراق الولاية الأمريكية الثالثة والخمسين) ص ٧١ أما لقاؤه مع شيوخ عشائر شمر فقد إنتهى بحديث كبير المشايخ (حاكم ، اريد ان اطمئنك الى ولاء عشيرة شمر الدائم لك والحكومات التي حررتنا) ثم تابع في الموضوع نفسه (ان ولاءنا ثابت لا يتزعزع)ص ١٢١ [٢١]

لا احد يمتلك سلطة على مثل هذه الآراء (رجل دين وشيخ القبيلة) أو تحولهما المفاجئ من قمقم التحفظات الأصولية الدينية والعشائرية الى فضاء الديمقراطية الذي باركوه ومنحوه الولاء المطلق لكن من حقنا بالطبع ان نعيد قراءة مدونات ثورةالعشرين التي تحتفظ لنا بدور هذه الأصوليات العراقية في اشعال فتيل تلك الثورة لطرد المحتل البريطاني .. الآن كيف نقرأ تلك المدونات على ضوء مستجدات المباركة والولاء للمحتل الجديد ؟ ان مثل هذا الأمر يشبه كثيرا ما فعله الجزائريون بعد ان قدموا مليون شهيد للتخلص من الأستعمار الفرنسي لكنهم خرجوا عند زيارة جاك شيراك للجزائر بمئات الألوف (وهم يهتفون : شيراك رئيسنا ، شيراك رئيسنا) والسؤال الذي طرحه شاهد هذه الرواية الكاتب (حسين كركوش) : لماذا فقدت

الجزائر ـ اذن ـ مليون شهيد ؟)[٢٢] وهو ذات السؤال الذي نطرحه الآن عن مصير مرويات ثورة العشرين العراقية ، هل يدخل الدم الذي أراقه الثوار في لعبة خداع المصالح أم اننا ازاء فشل مشروع حضاري تنتج عنه بالضرورة أزمة معنى سواء في العراق أو في الجزائر لآ فرق ؟ مشروع يرتد وينتكس ليقدم اعتذاره الخجول والصلف في آن للدول التي حاربها ذات يوم .. بمثل هذه المخاتلات الفادحة تغترب المفاهيم عن نفسها مثلما يغترب الأنسان عن معناه أو يفقده تماما في لحظة عري فاضح ولا غرابة اليوم عندما نجد من يعيد قراءة تلك المدونات الثورية (ثورة العشرين تحديدا) ليفرغها من معناها الوطني المألوف بدعوى انها كانت احتجاج فلاحين و قبائل قبل ان يتشكل (الوطن) !

(٦)

نقد التجربة الأصولية

- **نقد الخطاب الديني :**

هناك فرق بين (الدين) بوصفه منظومة قيمية مقدسة و (الخطاب الديني) باعتبار أن هذا الأخير حراك بشري / رؤية تأريخية للنص وبالتالي فأن نقد الخطاب ينبغي ان لا يستثمر لأتهام الناقد بتطاوله على الدين نفسه وهذا ما يفعله أغلب الأصوليين لحماية قراءاتهم الخاصة من كشوفات الثقافة النقدية ،لنتذكر ما حصل بالضبط مع الدكتور نصر حامد ابو زيد عندما استثمرت طروحاته الفكرية لهذا الغرض ، يقرر ابو زيد أكثر من انتباهة على هذا الصعيد / نقد الخطاب :

١ـ اهدار البعد التاريخي : يؤكد ان آلية إهدار البعد التاريخي تعد في جانب منها جزءا من بنية التوحيد بين الفكر والدين / بين الفهم و (النص) بينما (يقع الفهم في الحاضر وينتمي النص الى الماضي لغة على الأقل) حيث يعمد الأصوليون غالبا الى مثل هذا الأهدار من خلال النظرةالمتاصلة للنص على انه كتلة قولية جامدة تتحرك خارج الزمن ، سرمدية لا علاقة لها بالتاريخ بل علاقتها الأكيدة بالأبدية بينما نحن جميعا المعنيين بالنص نعيش في الزمن والتاريخ ، هذه المفارقة تؤدي بالضرورة الى تصنيم التجربة كما انها تهدر الراهن/الحاضر لصالح الغابر أوالماضي بل تستجلب مشكلات ذلك الماضي بوصفها مشكلات راهنة وهي ليست كذلك وهذ ما سندعوه في الأسطر القادمة بـ(استدعاء الماضي)،بالطبع يشمل مثل هذا الإستدعاء أحكاماً تغير زمانها وإجتهادات أصبحت الآن شاذة،نذكر مثلاً ما تناقله الإعلام بصدد إستيلاء المقاتلين الشيشان على نساء مختطفات من القرى الروسية وبيعهن كغنائم حرب أو جواري في دول إسلامية وهناك من أشتراهن على قاعدة (وما ملكت أيمانكم)*.

٢ـ المخاتلة المنطقية : يؤكد (ابو زيد) ايضا في نقده للخطاب الديني على حقيقة أن هذا الخطاب (لا يسلّم أبدا بالنتائج المنطقية للكثير من أفكاره بل كثيرا ما يجمع هذا الخطاب بين الفكرة ونقيضها) [٢٣] .. سؤالنا إزاءمثل هذا التشخيص : هل ساعد

الأسلام السياسي على عملية نقل (الدين) الى السياسة فجعله يقبل براغماتية التناقض لفرط تسييسه أم أن السياسة ذاتها زحفت على الدين لتظهر بلباس كهنوتي زائف ؟ هناك ـ كما سنرى ـ أكثر من طروحة بهذا الصدد .

* الصباح الجديد / الصفحة الأخيرة ٥-٧-٢٠١١

- **التجربة العراقية :**

لم تكن التجربة العراقية خاصة بعد احداث نيسان ٢٠٠٣ وتدفق الأصوليات على ساحة السياسة بعيدة عن الترسيمة الأصولية بشكلها العام أو ما نطلق عليه الأسلام السياسي بشتى مذاهبه وإتجاهاته بل ان العراق صار مختبرا حيا لهذه التجارب النظرية اذ يمكننا تسجيل جملة من النقاط بهذا الصدد :

١ـ استدعاء الماضي : نشطت سياسة الأستدعاء على المسرح العراقي حيث قامت طروحات الأحزاب الدينية على متبنيات تاريخية انعكست سلبا على الواقع الحياتي في العراق بل زادت من حدة الصراع الطائفي بين مكونات المجتمع ، بالطبع لا يمكن تحقيق هذا الإستدعاء إلا من خلال (إهدار البعد التاريخي) بين مشكلات الماضي وحاضر الناس في يومهم اذ تم تصعيد الخلافات الفقهية والمتوارثة واستدعاء اشكالات مزمنة مثلما تم اهمال المشتركات التي بامكانها تقريب الفجوة وتقليصها ،جرى ذلك كله لأغراض سياسية تدعم فكرة المحاصصة بوجهيها الطائفي والسياسي مثلما توفر مشروعا وهميا لطبقة سياسية لا تعيش أو تزدهر في مناخ المشتركات .

٢ـ شخصنة المقدس والتوسع فيه :يمكننا النظر الى هذه المسألة على انها إشكالية اجتماعية ثقافية من نوع ما .. الأفكار لا تمر مجردة بل لا بد لها من حامل / رمز يحمل كارزما معينة وهو طريق يؤدي بالضرورة الى انتاج دكتاتوريات متواصلة كما انه يشير مجددا الى إشكالية المطابقة بين الفكر والدين ، ما جرى في العراق هو اضفاء صفات (المقدس) على عناوين بشرية كالفقه والرواية (التاريخ) وسائر علوم

الشريعة الأخرى متناسين بذلك أن هذه العناوين هي ثقافات بشرية قابلة للأختلاف والتبدل .

٣ـ شعبنة الدين : لا يمكن ان تتحقق هذه المسألة الا من خلال (استعوام العلماء) على حد تعبير (سروش) أي بعد اختفاء الفاصل بين (العلم) الديني والممارسة الشعبية أو الشعبوية المبنية على أعراف اجتماعية وعادات ليست بالضرورة ذات مسوغ شرعي،بالضبط ظهر في العراق نوع من التدين الشعبوي أدى الى التوسع في مفهوم القداسة خارج حدودها المرتبطة بالنص الإلهي وللأسف نقول : إن الإسلاميين السياسيين استثمروا مثل هذه التيارات الشعبية (المتأسلمة) لأغراض انتخابية غير آبهين بحجم الضرر الذي سيلحق بمفاهيم الدين ذاته ولملاحظة هذه المسألة ملياً نجد أن بعض الباحثين (محمد أركون)إنموذجاً يفرق بين الشعبية والشعبوية بإعتبار أن الأخيرة متطفلة (دوغمائية متطرفة غرائزية) ويردها الى أسباب كثيرة من بينها أنها ناتجة (عن عمليات الإقتلاع من الجذوروالهجرة الكثيفة للبشر من الأرياف الى ضواحي المدن وإنتشار بيوت الصفيح البائسة التي لا يتوفر فيها الحد الأدنى من النظافة والخدمات الأساسية كالماء والكهرباء وغير ذلك،أنها تنتج عن تشتيت الناس الفقراء وتهميشهم ونبذهم وإستعبادهم وهذا ما يؤدي بالجماهير الى اللجوء الى العنف الجذري وإستخدامه كسلاح وحيد من أجل إسماع صوتها)*.

٤ـ شيوع منطق الإلتفاف : لهذا المفصل صلة بقضية (المخاتلة المنطقية) التي اشرنا اليها وهي جمع قسري بين الفكرة ونقيضها حيث دخل مثل هذا السلوك على الأسلام السياسي عندما انتقل من أخلاق الدين الى أخلاق السياسة وهو انتقال من المبدئية القائلة بان الغايات الشريفة لا تنالا إلا بوسائل شريفة مثلها بل ان فساد الوسيلة يتسلل الى الغاية ذاتها فيفسدها ، الى مبدأ آخر مضاد قائم على أساس ميكافيلية (المخاتلة المنطقية) وهو سلوك سياسي معروف ، ما حدث بالعراق شيوع مثل هذا المنطق الملتف / منطق يستند الى الخرافة لا الى العقل ،وهو لا يسود إلا في مجتمعات خرافة (تنتج عقلا ملتفا حول نفسه) [٢٤] يفرز بالضرورة حركات دينية تغادر واقعها فتحلق

او تلتف حول نفسها من قبيل دعوات (الخلاص) التي أخذت صورا شتى في العراق مستفيدة من منطق الخرافة التي يصفها ماركس بأنها (استخدام العقل بطريقة غير عقلانية) . لقد زخر الواقع العراقي بمثل هذه التناقضات (الملتفة) ، نذكر منها على سبيل التدليل موقف الحركات الإسلامية من (القومية) فالأسلاميون في العراق رفضوا (القومية) على اساس انها (مقولة علمانية تناقض العقيدة والدين)[٢٥] وقبلوا (القبلية) بل استندوا اليها في تقوية نفوذهم الإجتماعي متناسين أو متغافلين عن أن هذه الأخيرة مقولة جاهلية رفضها الأسلام أيضا بنصوص واضحة لا تقبل التأويل من نوع قوله (ص) (ليس منا من دعا الى عصبية) .. المفارقة هنا أكثر من غريبة خاصة عندما نعاين تجسداتها على ارض الواقع فالأسلام (الطائفي) يحتاج الى القبيلة بل يصنف القبائل طائفيا لأستمالة ولائها لهذا الحزب أو ذلك والقبليون في الوقت نفسه يرفعون الشعارات الطائفية ذاتها لتقوية نفوذهم من خلال مباركة رموز دينية لها مكانة بين أبناء قبائلهم ، بهذه التسوية المتبادلة نشأ عقد خاص بين الطائفة والقبيلة لكن المؤسف ان هذا العقد الفاسد تم تسويقه باسم (الإسلام) السياسي بالطبع القابل لمثل هذه المخاتلات وليس الأسلام الجامع كما ان هذا المنحى السياسي المغلف بقشرة كهنوتية واهية كان وراء احداث التهجير العرقي والطائفي والقتل على الهوية والمناطقية التي تنظر للناس على اساس ألقابهم وانتماءاتهم المذهبية .

ترى ما سر هذا التلازم بين تيارات الاسلام السياسي وطائفيته ؟ هل الطائفية سلوك حزبي / ايديولوجي تعتمده هذه التيارات لتحشيد حشودها ؟ لا بد ان تكون الإجابة على ضوء مجريات التجربة العراقية وما عانته من جراء هذا السلوك لنقول باختصار : ان ما تحاول ان تدعيه النظرية يخذله التطبيق ، في العراق تحديدا لم تستطع هذه التيارات ان تنقذ سلوكها من مطبات باتت معروفة ، لا نريد ان نقدم احكاما مطلقة ولكننا نعاين معطيات عملية تظل النظريات إزاءها طموحا مثاليا لا يصمد طويلا أمام لائحة الخسائر التي دفعها الناس .

* محمد أركون (قضايا في نقد العقل الديني) ص١٣٦ .

- **من الدين الى الأيدلوجيا :**

لعل اخطر ما في ظواهر الإسلام السياسي هذا التحول من الدين بوصفه منظومة قيمية متعددة القراءات والأبعاد الى (ايدلوجيا) أحادية الرؤية والقراءة إذ لا يتسنى لأحد أن ينقذ الأدلجة من احاديتها ومعنى الخطورة هنا يكمن في التحول من تسامحية التعدد الى عنف الأحادية الذي يصل الى حد إحتضان الجريمة ، هذا ما نبه اليه (فاضل العزاوي) في كتابه (الروح الحية) حيث يقول : (إن الأيدلوجيا مهما كانت انسانية في يوتوبياها فانها ليست ضمانة ضد الجريمة بل انها ذاتها يمكن ان تصبح اداة للجريمة عندما تصبح قناعا للجهل وتعتبر اوهامها حقائق مطلقة في الطريق الذي تعبده بالضحايا الى المستقبل السعيد!) .. ترى كيف يتحول الدين الى ايدلوجيا ؟ المتعدد المفتوح على القراءة الى أحادي ؟ بالتأكيد يحصل هذا النكوص جراء قراءة سلبية او كما يقول ابو زيد (ان قراءة الحاضر في الماضي مع اهدار الدلالة التاريخية للنص المقروء تمثل تعديا على الحقيقة وتضحية بالأ بستمولوجي لصالح الأيدلوجي) [٢٦] وبالعودة الى التجربة العراقية تحديدا ينبغي الأشارة الى ان هناك اتجاها وسطيا حاول من خلال جهود محدودة ان ينقذ الممارسة الدينية من هياجها الأيدلوجي بالعودة الى الفصل بين التجربة التاريخية محل الأختلاف والنظر، والمقدس الديني الذي ينبغي النظر له على انه منظومة قيمية تزودنا بمبادئ عامة علينا ان نسعى لأستلهامها حيث ليس من حق أحد أن يحتكر هذا المقدس بل هو فضاء مفتوح ينبغي عدم تقييده بقراءة مهيمنة ، هذا الإتجاه هو ما يمكن تسميته ب (الأسلام المدني) وهو كما أسلفنا بطيء الخطوات بل وضعيف أيضا ، ربما يرجع سر الضعف الى حقيقة ان كل الإتجاهات المدنية في الدين او غيره عانت مأزقا في العراق سنأتي على تفصيله .

- **تداعيات الأدلجة :**

عندما يتحول الدين الى أيدلوجيا يعني ذلك اننا نعاني مجددا الأمراض المعروفة للمنظومة السياسية في العراق وهي كما وصفها (سيار الجليل) آنفا بانها مؤسسة

(عصابات واولاد شوارع ورعاع) ترى هل سيخترق هذا الصنف من الناس منظومة الدين هذه المرة ؟ وإذا تم ذلك بالفعل ماذا سيحصل ؟ يبدو ان مثل هذا الأختراق حصل في اماكن أخرى سبقتنا ، مصر على سبيل المثال ، ذلك ما يمكن ان نفهمه من العبارة التي طالما رددها (حسن حنفي) في كتاباته (إحتمينا بالنصوص فدخل اللصوص) .. اذن كيف سيكون الحال بالنسبة لنا في العراق خاصة واننا نمتلك تاريخا سياسيا لهؤلاء اللصوص ؟ وما هي النتائج ؟ يقول (ايميل سيوران) : (اذا اعتنقت طبقة اللصوص اسطورة ما فانتظروا مذبحة أو ما هو اسوأ من ذلك : ولادة دين جديد) هذا هو جوهر البشرى الذي يمكن ان تقدمه اطروحة الدين الجديد (دين ضد الدين) بحسب عنونه المفكر علي شريعتي وهو منحى لا يستقيم أمره إلا بالمزيد من المذابح كما حصل في عراق الفتنة الطائفية ، مذابح كانت فيها الأجساد المغدورة تتراقص على أنغام تراتيل كهنوتية زائفة ! .

- **تداعيات اخرى للظاهرة :**

لا يمكن ان تمر ظواهر طاغية من هذا النوع دون ان تفرز تداعيات محايثة،إن ماحصل في العراق كان يحمل طابع الصدمة والمفاجأة إذ ان جانب (الهوس) فيه أكبر من سواه ولا يمكن تفسير مثل هذا الهوس الديني إلا في سياق الفوضى السياسية الشاملة التي عمت البلاد بعد احتلال ٢٠٠٣، هوس شامل ، والهوس غالبا يكون على حساب المعنى ، على حساب المضمون ، فضاء قابل للتناقض : بداوة بلا كرم ! وقبائلية بلا تقاليد تحمي الضعيف او تغيث المظلوم ، تدين بلا ايمان ، مدن بلا مدنية ، جيل جديد يجمع بين الالقاب العلمية و الخرافة ، اكاديميون قبليون ! التداعيات لا تحصى غير ان رصدها يسهم كثيرا في فتح باب المعالجات ولو بعد حين ، لذا لا بد من تنبيهات محددة :

١- ان ارتباط الأسلام السياسي في العراق ، الطائفي على وجه الدقة بالقبلية ادى بالضرورة الى اسلمة التخلف ، جرى ذلك بعد افراغ الأسلام من منحاه التنويري لصالح جاهلية قبلية جديدة ومن مخاطر هذ السلوك انتكاس ثقافة التحول أو التغيير ذلك لأنها ستصادف عقبات من التخلف المحصن بدعامات دينية زائفة بل ان من يريد أن يتصدى للتخلف سيبدو في نظر الكثيرين كما لو انه يتصدى للدين او لله تعالى مباشرة ! ويبدو ان الامر ليس جديدا على صعيد العلاقة بين دين من هذا النوع والقبلية او الاقطاع حيث يذكر لنا التاريخ علاقة الاسلاميين الاتراك مع الاقطاع التركي و البوذيين مع الاقطاع الهندي و التبتي وهو ما يسميه هادي العلوي (الحشد من اجل المصلحة) .

٢- ساهم اسلام سياسي من هذا النوع في تكريس مقولة (الفرقة الناجية) ذلك من خلال تقديمه التأويلات المذهبية على أنها تأويلات نهائية غير قابلة للأختلاف وهو المنهج الذي رفضه أصحاب المذاهب المعروفة في التاريخ الإسلامي فليس هناك صواب مطلق بل هناك (صواب يحتمل الخطأ)على حد تعبير الشافعي في مقولته المشهورة كما ان هناك(خطأ يحتمل الصواب) وهو الجزء الذي ينبغي ان نقوله لخصومنا في الرأي كي لا نعمد الى اسقاطهم تماما .. ترى أين يقع هذا التسامح من عصبويات (الفرقة الناجية) التي تصل الى حد تكفير الطرف المقابل تمهيدا لقتله ، هنا ينبغي أن نتذكر جميعا آليات التكفير التي اشتغلت على الساحة العراقية فراح ضحيتها آلاف الشباب العراقيين ذبحا وتهجيرا .كل هذا يحصل في ظل حكومات (متأسلمة) ، أموية النهج مهما ادعت خلاف ذلك لان اسلامها اسلام سلطة بلا ايمان ! غرائزي (مستخدما آلة الدين للدنيا) على حد تعبير الامام علي بن ابي طالب (ع) .

٣- في البلد الذي يعاني - بحسب خبراء الأجتماع - تناشزا إجتماعيا جاءت الأحداث لتضيف الى تناشزه التكويني هذا تناشزات عقائدية كانت اشد ايلاما على جسده المقسم الى مكونات يراد لها ان تلتحم لا ان تزداد فرقة وتناحرا.

٤ـ التشويش مجددا على مفهوم الهوية من خلال طرح معادلة غير مسبوقة على الصعيد العراقي تكمن في الجدل الحادث بين الطائفة والوطن : الوطن فوق الطائفة أم أن الطائفة فوق الوطن ؟ وإلا كيف نفسر إنقسام ولاء الطوائف العراقية بين ايران والسعودية مثلا ؟ أين المشترك العراقي في مثل هذا الأنقسام ؟

٥ـ نشأ عن تشويش مبدأ (المواطنة) واستئثار المكونات الكبيرة بسلطة القرار إحراج لا يستهان به لأبناء الأقليات العرقية والدينية بل ولد شعورا بأنهم مهما حصلوا على الكفاءة والأمكانية فان دورهم ضئيل على مسرح الحياة العملية ، الأمر الذي جعلهم يشعرون دائما بـ(حس الأقلية) في وطن يميز بين ابنائه عرقيا وطائفيا ليصبح مثل هذا التمييز مدعاة للهجرة مثلما يصبح العراق بلدا طاردا على الدوام .. هذا النوع من الهجرة يمكن ان ندعوه بالهجرة المفتوحة وهي الخامسة بحسب تسلسل الهجرات العراقية التي تحدثنا عنها .. بالطبع يصعب القول ان العراق صار بالنسبة لأبنائه المبدعين (صالة ولادة) لا غير ، يولدون به ثم يهاجرون مدفوعين برؤية مفادها ان فكرة الحياة لا يمكن تحقيقها هنا ! ان ضمير الوطنية الحقة يلزمنا جميعا ان نبحث عن معوقات تحقيق هذه الفكرة التي تعقدت بدرجة المستحيل !

وخلاصة لهذه التداعيات بامكاننا ان نسأل : اذا انعزلت الخبرة والكفاءة في دولة المكونات والطوائف من الذي يملأ الفراغ ؟ اليس المنتفعون والطارئون يجدون فرصتهم مجددا ؟ للأسف هذا ما حصل بالضبط حيث حلت (الميليشيات) بدلا عن القانون وانتشرت (الجريمة المحمية) مثلما استفحل الفساد المالي والأداري على مرأى ومسمع سدنة الحركات الأسلامية لتتراجع فكرة (الدولة) عن الطريق الذي كنا نأمل ان تتقدم فيه مثلما ظهرت مجددا ظاهرة (المواطن الحزبي) المنتمي يقابله على الطرف الآخر جمهور معزول (لا منتمي) ! .

- **صناعة التطرف :**

لا يمكن ان نتحدث عن تداعيات الظاهرة الدينية في العراق دون ان نفرد موضعا خاصا للتطرف بوصفه صناعة، ذلك لأنه يحتاج الى أكثر من حاضن مثلما يحتاج الى افكار مسبقة تسوغه وتقدم له المقولات الكافية كي يتحول الى سلوك جمعي ينتج عنه ما ينتج ، ان المنظومة الأجتماعية هي أولى حواضن التطرف ، هذه المنظومة التي تمارس على نفسها (وعياً مغلقا) بحسب تعبير (سليم الوردي) الأمر الذي يؤدي بالضرورة الى سلوك (عصبوي)أحادي يشكل احد الحواضن المشجعة للتطرف الديني والسياسي واذا كان التعصب بحسب تعبير توينبي (خيارا غير قابل للحياة) فان الأعتدال بالضرورة هو الضديد الصعب تحقيقه في مجتمعات تبشيرية غير قابلة للتحول ، مجتمعات وثوق تعتقد أن ما لديها يستحق ان يبشر به وبالتالي تصعب مطالبتها بالأنزياح او التحول عنه ولو قليلا ، من هنا تنشأ أزمة التجديد او الأصلاح اذ يصبح صراعا بين (قناعات)من جهة ورؤى متقدمة تريد اصلاحا لهذه القناعات من جهة اخرى .. هناك اكثر من مفارقة على هذا الصعيد فالبعض يعتقد ان التعصب يحمي الحقائق القارة بينما يرى (علي حرب) أن (التعصب للحقيقة هو ضد الحقيقة) كما ان هناك تشوهات معرفية بصدد مفهوم (الحقيقة) ذاتها فهي لم تعد ذلك المفهوم المتعالي ، الخارج عن ارادتنا أو سيرورة حياتنا اليومية والمنزهة عن الخطأ تماما بل هي أيضا كما يراها (حرب) نفسه (الحقيقة التي لا تخطئ ليست بحقيقة) [٢٧] .. الحقيقة الآن ليست (تطابقا) كما رآها ارسطو بل هي اختلاف كما نراها اليوم ، والسؤال هنا كيف يمكن إعادة مداولات من هذا النوع في واقع عصبوي لا يقيم وزنا لثقافة الحوار كما انه لا يسمح بلأختلاف أو يؤمن به بل ان مثل هذا المناخ المقلق لا يقود الا الى أسوأ أنواع الإختلافات وهو ما اطلق عليه عبدالكريم الخطيبي بـ(الأختلاف الوحشي) [٢٨]

بالطبع يستند التطرف الى مقولات من بينها (الفرقة الناجية) كما نوهنا آنفا وهي الفرقة التي تحتكر الحقيقة والخطاب معا بدعوى انها وصلت الى كنه النص وعرفت

تأويله دون سواها استنادا الى الحديث النبوي القائل (ستفترق أمتي ثلاثا وسبعين فرقة الناجية منها واحدة) والغريب في مجتمع (الملل والنحل) أن كل ملة وفرقة تدعي انها هي هذه (الواحدة) ! والأغرب أيضا انهم يتعاطون مثل هذه الفكرة ويتناسون نصوصا قرآنية صريحة تشير الى غير هذا المعنى كقوله تعالى (قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون) الزمر ٤٦ ـ لنسأل ـ اذن ـ من الحاكم في مثل هذه الأختلافات ؟ الله تعالى أم سدنة الفرق ! نجد في مثل هذا الموضع ان هناك من احل خطابه (محل الخطاب الإلهي وبذا صار التاريخي بديلا عن المتعالي وقام الفرع مقام الأصل واصبحت القراءآت أولى من الكتاب المقروء وهذا ضرب من ضروب النسخ) [٢٩] ان اصحاب الفرق وفقا لهذا المعنى يقدمون قراءات ناسخة للنص الأصلي وهذا ما لا يجوز حتى في علومهم التي يدعونها .. نسوق هذه المداخلة بقصد الأشارة الى انماط صناعة التطرف الديني ، يضاف الى ذلك كله استغلال مثل هذه القراءات الأحادية لأنتاج ايدلوجيات متطرفة بالدرجة نفسها عابرين الخط الفاصل بين الدين بوصفه (معرفة) وتسيس بعض القراءآت بطريقة معرقلة لحركة (الأيستمولوجي) المعرفي ومضادة له ، مكمن الخطورة يتلخص بامرين :

١ـ ان الدين عندما يكف عن كونه (معرفة) يتوقف الحوار بالضرورة لتنتعش شكلانية الطقوس حتى تبدو وكأنها الدين كله ، هذا المشهد الذي نرى من خلاله (مصلين) لا تنهاهم صلاتهم (عن الفحشاء والمنكر) مثلما نرى جمودا في حركة المعرفة التي تعد كفرا في نظر المتطرفين لينقسم الأصطفاف : معرفة ملحدة وجهل مؤمن !.. ولا ادري ما الذي يراد بنا عندما تصبح المعرفة كفرا ؟ .بالتاكيد لابد ان يتأزم (المعنى) وتتضبب صورته

٢ـ ان التحول من الدين بوصفه معرفة او خطابا معرفيا الى الأيدلوجيا بوصفها (خطابا قتاليا) على حد تعبير الدكتور عبدالكريم سروش يعني ذلك اننا تحولنا من قيم

التسامح الى دموية التطرف وهذا ما اشرنا اليه آنفا باعتباره واحدا من تداعيات الظاهرة .

هنا ينبغي ان نعيد مداولتنا لمفهوم (الأيدلوجيا)/هذه المفردة الفرنسية التي ظهرت إبان الثورة سنة ١٧٧٩ وهي من المصطلحات التي اشتقها الفيلسوف (د . ترسي) حيث تستند الى مفاهيم ومقولات سبقتها (لا تقتصر رسالة العلم على توسيع معارف الناس وحسب بل وتحسين حياتهم على الأرض) [٣٠] وهي ذات الأطروحة التي طرحها ماركس بصدد تغيير العالم (ليس المهم تفسير العالم بل المهم تغييره) .. ترى هل استند الأسلاميون في انتقالهم من سكونية الوعظ الى حركية العمل / السياسة الى مثل هذا التفريق ؟ ومهما يكن من امر فان العمل على تغيير العالم لا يمكن ان يمر عبر إحتكار الخطاب أو تضييق فرص الحوار على الناس إستنادا الى طهرانية (الفرق الناجية) ودنس الآراء المخالفة .

- **الأعتدال :**

لا يمكن الحديث عن الاعتدال إلا بالاستناد إلى معرفة شاملة ، هذه التي أشار لها (هاني فحص) في احدى مقابلاته (بقليل من الدين تصبح متطرفا ولكنك لا تستطيع ان تصبح معتدلا إلا اذا فهمت الدين كله) .. الإعتدال ينطوي على فهم عميق للحياة ذلك لأن هذه الحياة نفسها (هي نسب معتدلة من الرطوبة واليبوسة والحرارة والبرودة) واذا اردت ان تكون معتدلا فان ذلك يعني (ان تكون دوما على شفرة المتناقضات فالأعتدال هو اعقد الظواهر وهو ابسطها أيضا) [٣١] .. أعقدها اذا نظرنا له من زاوية الإنحياز اللاموضوعي واللوثات الأيدلوجية المتجهة الى هدف ما ، وابسطها اذا نظرنا له (من زاوية الفطرة الإنسانية البريئة غير المنحازة) .. على ضوء هذا نفهم ان الإعتدال تربية وضمير ورؤية صافية لا تضحي بالمصالح العليا لأجل انتفاعات مؤقتة وغنائم ثمنها فادح ومصيرها مجهول .. في العراق اجيال من الطبقات التي وصفناها بـ(المصلحية الطارئة) ، هذه التي تنظر بعين المصلحة لا

بعين الضمير لذا فهي تقف عثرة امام ثقافة الاعتدال لأنها تستفيد في معاشها من التطرف .. هؤلاء ابناء هذه الطبقات هم انفسهم دعاة الفرق الناجية الذين يدمرون ملامح أي فعل معرفي صادق مثلما يعطلون ثقافة المشروع ومشروع الدولة تحديدا لصالح أثنيات وانقسامات يعشعشون بين شروخها ، الأمر الذي يدعو الى عمل مؤسسي يتصدى له المعتدلون وما تبقى من رموز الطبقة الوسطى المندرسة من مثقفين وتنويرين على ضعف امكاناتهم ، هؤلاء كلهم مدعوون لمهمة شاقة : بذر بذرة الأعتدال في تربة التطرف !

- **تحرير الديني من الأيدلوجي :**

تطرقنا في اكثر من موضوع الى ظاهرة تمدد الديني او خروجه من حقله المعرفي الأبستمولوجي الى السياسي الأيدلوجي وهو التشخيص الذي تبنيناه إستنادا الى واقع حال الأسلام السياسي الذي انتقل بعدته الدينية من فضاء الى فضاء ، لا نريد ان نكرس مثل هذا المنحى بوصفه تشخيصيا نهائيا بل هناك من يرى العكس عبر اطروحة مضادة ترى ان السياسي هو الذي تمدد واستثمر الديني، وهذا هو جوهر إطروحة (محمد محفوظ) التي يقول فيها (يخطئ البعض حينما يصور المشكلة وكأنها سيطرة الديني على السياسي ... فالمشكلة الحقيقية والشاخصة التي يعانيها المجال الأسلامي في هذا السياق إخضاع الديني بكل رموزه ومؤسساته وإلحاقه بالسياسي ولصالحه) على ضوء هذا التشخيص تنشأ الحاجة الى (ضرورة العمل على تحرير الديني من السياسي) [٣٢] ثم يستطرد في السياق ذاته ليؤكد ان مشكلتنا هي عكس المشكلة الغربية التي (كانت في تغول المؤسسة الدينية الكهنوتية) ليخلص الى القول بان فكرة (الدولة) لدينا حتى العلمانية منها هي فكرة كهنوتية في جوهرها بل ان إجراءات تعسفها تجري بطريقة الكهنوت وتستثمره عبر مقولاته وآلياته ، يحصل ذلك من خلال مخاتلة ايضا يلخصها بـ(يافطات حديثة لواقع تقليدي عصبوي) وهنا نقول للموائمة بين الطروحتين : ليس هناك من فرق على مستوى الواقع سواء تمدد

السياسي على الديني أو الديني على السياسي ففي الحالين نحن نخضع لأنساق الكهنوت عمليا سواء كان الدين بلباس السياسة أو السياسة بلباس الدين.

- **أدبيات الفترة المظلمة :**

لا يمكن إغفال أثر هذه الأدبيات على واقع الإسلام السياسي الآن فالقطيعة التي مارسها المسلمون عبر تأريخهم مع قرون الإسلام الأولى وإمتداد فترة الإنحطاط (من القرن الثالث عشر وحتى القرن التاسع عشر)تركت أثراً لا يستهان به أي بعد إنقطاع السؤال الفلسفي والذي يحدده بعض الباحثين بموت ابن رشد سقطت التجربة في ظلاميات الغنوص والدروشة على جبهة (إسلام الخلافة) بينما إنتعشت الخرافة وطروحات المخلّص على جبهة (إسلام الإمامة) وهما الخطان المتقابلان اللذان غذا مستقبل الصراع السياسي المتلبس بلباس إجتهادات فقهية متناحرة،إن أدبيات هذه المرحلة (المظلمة)تعد (أساطير مؤسسة) لكثير من المعتقدات التي لم تكن مألوفة في القرون الأولى للحوار الإسلامي بل ان (المجتمعات العربية الإسلامية ناتجة عنها مباشرة/أي تلك الفترة/وبالتالي فلا يمكن فهم المشاكل الحالية إن لم تفهم تلك الفترة)*

- **ازمة استعمال الوجود**

ينتج عن انتعاش التدين الطقوسي واجواء التطرف ان تتحنط الحياة فلا يدع المهووسون مجالا لاستعمال الوجود ، الاصغاء له والمشاركة في صنعه او استلهامه ، فالطبيعة مثلا تلهمنا الرسم والاصوات تحرض الموسيقى لكن ازاء ذهنية التحريم نصل الى حالة من عطل وعدم استعمال ما حولنا ، نتفرج عليه فقط ونحاكيه بمقولات لا غير ، هذا ما يحدث في ظل التجربة الكهنوتية تماما وهو منشأ الاغتراب بين مقولات (ادبية) عالقة وواقع تاريخي يجري

ويتحرك قدما الى امام ، انها لحظة اغتراب حرجة عندما شعر بها المتأسلمون ظنوا ان الحل يكمن في العودة الى لحظة الاصل واقعين تحت وهم المطابقة على حد توصيفات (علي حرب) ومتناسين ان حتى تلك اللحظة لم تعد واحدة في ذهن الجميع بل تضببت بفعل حرب القراءات اذا صح القول ، ومهما يكن فان مثل هذا الحل الافتراضي هو ايغال في المشكلة ، اغتراب مضاعف يتضمن اهمال الوجود كيانا وزمنا ، هذا الوهم يهدر الراهن ويعطله حتما لنصل بعدئذ الى عقيدة ادبيات، خطاب ، اقوال فضاؤها الحلم لا الواقع ! حشد نصائح كهنوتية بجوار لا شيء ! تراتيل تبالغ في رحلتها الى السماء بينما الارض محل العمل تظل شاغرا ! من هنا يصبح التاكيد على ان هذه المعتقدات (سماوية) له معنى آخر ، اي انها ليست على صلة بالارض ! سماوية لا باعتبار جهة الصدور فقط بل باعتبار فعاليتها كاملة ، ادبيات مكتفية بمقولاتها المتعالية ولا شيء بعدها و كما يقول ادونيس (ليس في كتب السماء شيء خارج الحبر) ، حبر مقدس و مقولات جازمة تحصن نفسها من اي اختبار حقيقي بينما هناك ديانات ارضية اقل ضجيجا على مستوى البلاغة كالزرادشتية مثلا قامت على ترابط من نوع (الافكار الصالحة / الاقوال الصالحة / الاعمال الصالحة) ترابط حيوي معياره واقع التجربة اي لا افكار صالحة بلا دليل من الاعمال الصالحة ، المشكلة ان المتأسلمين يفصلون غالبا بين مقولات فكرهم الديني وواقع اعمال المتدينين قاصدين بذلك تبرئة النظرية من خلال ادانة انفسهم وحدهم او ادانة اتباعهم عبر تبرير مضحك سقط بتقادم الفشل وتكرار ملامحه في كل مرة ، انهم يفصلون بين (اسلام ذهني) اسلام المقولات المقدسة و (اسلام عيني) اي واقع الاسلام والمسلمين غير الناهض وهو ذاته التبرير الذي اخذ به الماركسيون من خلال الفصل بين (المدرسة الماركسية والحكومات الماركسية) بحسب تعبيرات الراحل علي شريعتي وان كان هناك ثمة فرق ، ففي الماركسية العينية هناك تجارب ناهضة كالتجربة

الصينية التي وصفها هادي العلوي بماركسية (القاعدة) لا ماركسية (القمة) وعلى ضوء تفريق (العلوي) نفهم ان التناشز بين الذهنية والعينية يحصل عند الايدلوجيين النظريين لا عند بروليتاريا القاعدة ومهما يكن من امر فان مقصودنا هنا هو فضح آلية التوسع في التبريرية لصالح حماية النص / المقولة من لسعة اختبار الواقع التي تضعه موضع الحراجة والاغرب من هذا كله ان التبريريين يجدون في عدم استعمال الوجود / الواقع و تحريمه بالمطلق افضل سبيل لحماية النظرية من الاختبار ! وهذا هو جوهر التصحر الفكري والوجودي الذي تعيشه الجماعات الكهنوتية حيث تتحدث النظرية عن النظرية ! كل هذا في ظل (لاشيء) مبارك !

*محمد اركون (قضايا في نقد العقل الديني).

(٧)
الاصلاح الديني

إزاء تداعيات خطيرة من هذا النوع لا بد أن يتردد حديث عن الاصلاح،هذه المفردة التي يتحفظ عليها الطرفان:الأصوليون والإصلاحيون معاً فالأصوليون يرون أن تعبير (التجديد) أقرب الى الصواب بينما يرى الاصلاحيون أن هذه المفردة لطول تكرارها أصبحت تنطوي على معنى ما (إطالة لعمر الخلل)[٣٣] ومهما يكن من أمر التعابير فأن المقصود هو اصلاح القراءة الدينية السائدة/الفكر الديني،خاصة وأننا نعرف أن هذا الفكر شهدَ على مر تأريخه صراع قراءات كان من بينها تقابلات الفقه والتصوف مثلاً أو المدارس الكلامية والفلسفية التي لاقت عنتاً من (علماء الرسوم) كما سماهم أبن عربي وصولاً الى حاضرنا الراهن الذي شهد مستويات أخرى من صراع القراءة كالذي حدث في أيران على يد د.علي شريعتي أو عبدالكريم سروش أو في مصر كالذي حدث مع د.نصر حامد أبو زيد وحتى العراق شهد مثل هذا الحراك كالخالصية والصدرية في الفقه الشيعي..علينا أن لا ننسى في السياق ذاته بوادر الحركات الاصلاحية التي ظهرت أوائل القرن العشرين ولكنها توقفت لأسباب سنمر على بعضها..خلاصة القول:إن حركة الاصلاح لا يمكنها أن تتم الا من خلال أحد الطريقين:من داخل المؤسسة الدينية على غرار الحركة البروتستانية في الفكر المسيحي أو من خارج هذه المؤسسة:

- **الاصلاح من داخل المؤسسة :**

يمكننا أن نعد حركة الأفغاني وعبدة والكواكبي كانت محاولة للاصلاح من داخل المؤسسة الدينية ذاتها غير أن الانقطاع والتوقف الذي رافق ذلك الجهد كان مرده الى أكثر من عامل:

١. إن الجهود التي إنصبت في ذلك الإتجاه كانت نخبوية في طروحاتها فلم تلامس أنساق عمل وتفكير المنظومة الإجتماعية بل أن هذه المنظومة ثبت عدم إمكانية تغييرها عبر أفكار مجردة حتى لو كانت تنويرية وكبيرة،إنها بحاجة الى مشروع تنمية يسبق ويمهد لأي تغيير فكري لذا فأن (فشل مشروع التنمية في الواقع العربي جعل من الدين بمستواه الشعبي البديل الجاهز)[٣٤] الذي يتم من خلاله تعويض إطروحة التنمية الحضارية الغائبة.

٢. إن التنويريين أنفسهم إستخدموا مقولات التراث ذاتها ولكن بطريقة ذرائعية،الأمر الذي (عاقهم عن تحقيق إنقطاع جذري عن النقيض السلفي ومكن السلفية من الإنقضاض على ما حققته التنويرية من إنجازات جزئية)[٣٥]..تكشف هذه المسألة ضرورة إستحداث منظومة مفاهيمية جديدة يتحقق من خلالها إعادة تشكيل مفهوم التدين في ذهن الناس وهذا لا يحصل في مجتمعات تنقصها مشاريع تنمية الثقافة والمجتمع.

- **الاصلاح من خارج المؤسسة :**

إن صعوبة مثل هذا الإتجاه تصبح أكبر عندما نقف وجها لوجه إزاء إشكالية من نوع خاص:المثقف النقدي والفقيه خاصة بعد علمنا بأن المؤسسات التقليدية ما زالت قاصرة عن إنتاج أو حتى قبول فكرة (المثقف)قياساً بغزارة إنتاجها للفقهاء،ومأزق هذا المثقف النقدي يكمن في أنه يجد نفسه غالباً في مواجهة العامة وليس منتج الرأي الآخر أو خصمه الثقافي،ذلك لأن هذا الخصم وعلى إمتداد تأريخه (الحديث على الأقل) إستفاد من شعبنة الدين وإستغل عواطف البسطاء للوقوف بوجه أي هجمة نقدية محتملة..العامة_لدينا_ عسكرتاريا مسلحة بأباطيل من بينها الاعتقاد بأن ما تعارفت عليه هو الحق،بذا يصبح (العُرف) مرادفاً للحقيقة وبما أن الأعراف تأخذ طابع الهوية الثابتة فأن مثل هذا الثبات يفرض سماته على مفهوم الحقيقة بأكمله بينما تذهب الثقافة والفكر الى إعتبار الحقائق إنتاجا..من هنا ينشأ الصراع/المعركة غير المتكافئة بين

هيمنة خطاب وإقصاء آخر لينتقل الجدل كله من منطقة الحوار الى (الخطاب القتالي) الأيدلوجيا،ولهذا الخطاب أكثر من سلاح وطريقة خاصة في عراق الصراعات من بينها إتهام الآخر بالعلمنة والعلمنة بالكفر وهذا الأسلوب واحد من أساليب المخاتلة النفعية،ذلك لأن الأصوليين أنفسهم أقروا دستوراً مدنياً وعملوا بموجبه متناسين أنهم يمارسون (العلمنة) التي يتهمون بها خصومهم في الرأي..هذه بعض أوجه الصعوبة التي يواجهها الإصلاح الديني من خارج مؤسسات الدين المعروفة.

- **ماذا على المثقف إذن ؟**

يقول أدوارد سعيد في كتابه (صور المثقف):(إن على المثقف في كنف الإسلام أن يحيي الإجتهاد والتفسير من وجهة نظر جديدة لا أن يستسلم منساقاً مثل الأغنام وراء علماء الدين ذوي الطموحات السياسية أو مثيري عواطف الدهماء)ص٨٣..بينما يذهب (أركون) الى تحميل هذا المثقف مسؤولية من نوع آخر (عندما يتحول الدين الى هذيان جماعي يحمل في طياته الموت والخراب فأنه ينبغي على المؤرخ أن يعمّق التحليل أكثر فأكثر حتى يصل به الى المنشأ الأول للدين)* نلحظ هنا أن (أركون) يخص عمل المؤرخ ويقصد بالطبع الجهد الثقافي برمته حيث يثير أهمية البحث في المقاصد الأولى للتدين ليؤكد في موضع آخر على حقيقة أن (الظاهرة الإسلامية ساعدت على التحرر والتجديد والتطور في البداية ثم توقف كل ذلك فيما بعد لكي ينتعش ويتواصل في الجهة الأوربية فقط) ويقصد هنا بالتوقف (تاريخ موت أبن رشد وهزيمة الإتجاه العقلاني) حيث إنتصر بعدها التيار الصوفي بدءاً من القرن الثالث عشر،تثير هذه المداولة أمراً حاسماً حول الجذر النظري والتاريخي للتدين أي كيف يبدأ والى أين يصير؟

الأديان كلها في منشأها الأول تحررية والإسلام تحديداً بدأ تحريراً للناس ومعرفة جديدة على أنقاض أوهام وثنية تالفة ولذا فهو في نصوصه التأسيسية الأولى كان حواراً من نوع خاص غير أن سدنة الكهنوت سرعان ما ينقلبون على هذه البدايات السليمة لتتحول المعرفة الى أيدلوجيا وتتصلب شرايين الحوار لتنتعش الطقوس

المفرغة على حساب السؤال المنتج والمتجدد وهنا تتحول شعارات الحرية الى آليات إستعباد جديدة وتكف الأديان عن أن تصبح روافد ثقافية تغني حياة الإنسان،هذه المقارنة بين أمس الأديان وحاضرها هي واحدة من أولويات جهد المثقف الذي يعيش في بلاد الإسلام والى مثل هذا المعنى أشار أحد الشعراء العراقيين مخاطباً النبي محمد(ص):

بالأمس حررت العبيد من الورى واليوم أحرار الورى تستعبد

* قضايا في نقد العقل الديني ص ١٣٨

- **إطروحة الإسلام المدني ..**

أو (فقه الواقع)

تتقدم إطروحة الإسلام المدني بوصفها رؤية مضادة لمناخ التطرف إذ تستند الى وثيقة تأريخية مهمة (وثيقة المدينة) التي حكم من خلالها الرسول بعد هجرته الى يثرب..لهذه الوثيقة أهمية خاصة في المجال السياسي الإسلامي لأنها نوع من التعاقد الإجتماعي بين مكونات المدينة إستطاع أن يحقق حواراً مع الآخر/المختلف في إطار صيغة دستورية ضمنت التعايش والتسوية..ما يبرز هنا أن الرسول حامل القرآن الى الأمة عمد الى صوغ هذه الوثيقة التعاقدية،الأمر الذي يغري أصحاب هذه الإطروحة بإستعادة هذا النوع من التعاقد المدني في ظل قيم إسلامية معروفة،ولكن يبقى السؤال قائماً:ألا يحتاج الإسلام المدني الى قيم مدنية؟بالتأكيد لا بد من قيم تسامح وثقافة مجتمعية تحترم التنوع وإلا كيف يتم الحوار بين مكونات مختلفة؟..على أساس هذه المقدمة يمكننا أن نتأمل تأريخياً كيف أن هذه الوثيقة برزت في (يثرب) ولم تبرز في (مكة) ربما لأن العلاقة في (مكة) مع الآخر/المشرك كانت صراعاً بينما تحولت في (المدينة) الى (حوار) وقد أسهم التنوع الديني الذي توفر لأهل (يثرب) المدينة لاحقاً في إنعاش هكذا حوار،على ضوء هذا الفهم أيضاً صار بإمكاننا أن نفسر علّة إطلاق الرسول تسمية (المدينة) على (يثرب) بينما ظلت (مكة) تكنى بـ(أم القرى)..لا نريد أن نستثمر لفظياً دلالة المفردات فقط (قرى/مدينة) بل نشير الى طبيعة العلاقات في

كلا المكانين لنقول إن المدنية تكمن في إحترام التنوع والحوار معه لا الصراع من أجل إسقاطه أو تصفيته حيث لم يسعَ الرسول الى مثل هذا المنحى في علاقته مع سكان (يثرب) من اليهود مثلاً بل آمنهم على أموالهم وأنفسهم ولكنهم أخلّوا بالعهد معه كما تذكر الوقائع..في السياق ذاته يطرح بعض المفكرين مقولة (فقه الواقع)[٣٦] باعتبار أن هناك مستجدات واقعية ينبغي أن تعالج من خلال رؤية حضارية (مدنية)،والمشكلة هنا أن الواقع في البلدان المتخلفة لا يظهر مشكلاته على حقيقتها بل يعمد الى تزويرها والتكتم عليها في أغلب الأحيان ومهما يكن من أمر هذه المعالجات فأن الإسلام المدني أو الديمقراطي كما يريده البعض هو محاولة توفيقية لتكريس ثقافة الإعتدال إزاء ممارسات التطرف التي ساعد الإسلام الأيدلوجي بصورته المطروحة على تصعيدها مستفيداً من غياب المشروع الحقيقي والفراغ الثقافي الذي تعانيه الأمة.

- **الإسلام المدني ومأسسة المُثل :**

يحصل في ظل مثل هذا الاسلام المدني ان تتراجع صنمية الطقوس لصالح مؤسسات تتبنى تطبيق المثل الاخلاقية المستوحاة اصلا من مثل انسانية سواء كانت دينية او غير دينية ، يقول الكاتب والطبيب المصري علاء الاسواني (ان الطريق الوحيد للنهضة هو تطبيق مبادئ الاسلام الحقيقية :- الحرية والعدل والمساواة ، وهذه لن تتحقق الابأقامة الدولة المدنية التي يتساوى فيها المواطنون جميعا امام القانون بغض النظر عن الدين والجنس واللون) * يكشف هذا التشخيص ان مثلا من قبيل ال(حرية / عدل / مساواة) لاتتحقق من خلال وعظ الناس بها او التشدق من على المنابر بل لابد من مؤسسات دولة تتبنى تطبيق وحراسة هذه المبادئ أي ان تكون لنا مؤسسات حامية للعدل وضامنة للحرية وقادرة على فرض المساواة عبر اجرائيات تحد من الظلم وتمنع الاستبداد ، الدولة المدنية تعمل على مأسسة هذه المثل وحمايتها من الانزلاق الى ضديدها ، في تجربة من هذا النوع تتحول المثل الدينية الى مثل اخلاقية عامة وهذا ما نلحظه في تجارب الدول الليبرالية التي تكرس عبر قوانينها اخلاقيات عمل وسلوك هي في

جوهرها العميق اخلاقيات سبق ان دعت لها الاديان ، في العراق الجديد تضخم الوعظ على حساب الممارسة بل نجد في احيان كثيرة ان الممارسة تخذل مقولات الوعظ وتتناقض معها الى حد السخرية ، نذكر مثالا على ذلك الدعوات التي انطلقت من الحكومة نفسها للعفو عن مزوري الشهادات مثلا ، كيف يتناسب مثل هذا الاجراء مع مثل دينية تدعيها احزاب السلطة ؟ والامثلة كثيرة على مثل هذا التناقض الجوهري بين مقولات الاحزاب وممارساتها ناهيك عن مظاهر الفساد المالي والاداري التي لاتحتاج الى شاهد او دليل.

*نيرن علاء الاسواني / صالح الحمداني / جريدة الصباح / العدد ٢٣٠٨ في ٣١ تموز ٢٠١١

اصالة المثل :

ان القول بان قيم الانسانية ومثلها العليا هي الاكثر اصالة بل ان كل ما يسمى (قيما دينية) ينبغي ان تعود لاصالة الانسان كي تصبح لصق تجربته الحقيقية لا المكتسبة ينطوي على غرابة من نوع ما او حتى مفارقة منشؤها الفهم السائد بان الدين وحده مصدر القيم ولعل ما يذكره الراحل هادي العلوي في (المرئي واللامرئي ص١٦) يكشف جانبا من هذه المفارقة اذ يقول (ان معظم الذين انكروا النبوات من الزنادقة على اختلافهم من صوفيين ومفكرين افراد سلكوا سلوكا روحانيا متجردا من اللذائذ مقابل رجال الدين اللذين تمسكو بمبدأ سعادة الدارين / الحسية واللذائذية ، ويرجع الى ابي العلاء المعري تثبيت التقابل بين روحانية الزنديق وحسية المؤمن) ! ليخلص اخيرا الى التأكيد بأن (منظومة الفضائل الراقية هي التي طورها زنادقة الاسلام من الفلاسفة والمتصوفة وافذاذ المفكرين) وهي في النتيجة (ليست من نتاج الاديان) .. بمثل هذا التشخيص نكتشف اهمية (اصالة الانسان) في تكريس قيمه او ماسماه الراديكاليون في بيان لهم نشروه سنة ١٨٠٠ ب(الوجدان) هؤلاء الذين رفعوا نداء (ان ارفعوا

الله عن قاعدة الاخلاق وضعوا محله الوجدان) كما ينقل لنا علي شريعتي في كتابه (النباهة والاستحمار ص٦٣) ، مانريد ان نقرره اخيرا حقيقة ان استنهاض القيم الانسانية في داخل الانسان خير من تبشيره بدعوات يراد له ان يكتسبها وهي قد لاتكتسب بالمرة كما يجب الانتباه الى القيم المبتورة كأن نضع حدا على جريمة القتل بينما لاحد ولاعقوبة على الكذب والنفاق متناسين ان النفاق اذا استشرى مجتمعيا سيؤدي الى قتل جماعات لا افراد والامثلة كثيرة بهذا الصدد .والخلاصة التي ينبغي ان تقال هي ان الاخلاق اشمل واعم من الدين وبامكاننا ان نجد مصداقا لهذا القول حتى من داخل التجربة الاسلامية نفسها حيث كان النبي محمد(اخلاقيا) قبل بعثته (نبيا) وهو ما درجت على ذكره كتب السير التي تناولت شخصية النبي قبل البعثة .

- **مقولات (سروش) الاصلاحية**

يعد د. عبدالكريم سروش واحدا من الاسماء الفاعلة في الخطاب الديني المعاصر خاصة على صعيد الروئ الاصلاحية المطروحة لمعالجة راهن المسلمين في ايران او العالم الاسلامي عموما ، في كتابه المثير (الدين العلماني) يقرر ان حقيقة العلمانية تكمن في (الاعتراف بوجود مناطق في العالم لاتسمح بنفوذ الارادة الالهية اليها) * ومن ابرز مصاديق هذه المناطق علوم المنطق والرياضيات والهندسة ليصل بعد ذلك الى الفصل بين مقولتي الدين والسياسة فيقول (ان الدين ملك مشاع للجميع قد يكون له تفسير علمي وغير علمي ولكن ليس له تفسير رسمي) هنا تظهر مشكلة الادلجة فالتفسير الرسمي هو الذي يراد فرضه على الناس بوصفه ايدلوجيا دينية ينتج عنها الضغط والاكراه ، من المثير ايضا في كتابه المذكور انه يطرح رؤية جديدة حول مقولتي الدنيا والاخرة فالاخرة التي يريد العلمانيون اغفال النظر اليها بالمرة هي موجودة بنظره هذه

اللحظة ولكنها محجوبة عنا شأننا بذلك (كالطفل الذي يقبع في رحم امه) حيث ان العالم خارج الرحم موجود ولكن الطفل لايدركه حتى يخرج اليه ، هذا هو شأن الانسان الذي لايرى الاخرة رغم انها موجودة حسب رأيه وهنا لايمكن فهم مثل هذا الرأي الا بتكييف المقولات القرانية الدالة على ان الاخرة مؤجلة او قادمة وليست واقعة الان كقوله تعالى (ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون) الروم ١٢ ، فالتفريق هنا واجب بين الاخرة والحساب أي ان الحساب / القيامة هي المؤجلة وان (الاخرة) في اصل اشتقاقها اللغوي المأخوذ من (التأخير) يفهم على انه تأخير او تأجيل وعي بها وليس تأخير وجود .. لايروم (سروش) هنا ان يذكرنا بأحاديث من نوع (الناس نيام فأذا ماتوا انتبهوا) بل هو يريد على وجه الدقة ان يوازن بين العلمنة والدين / الدنيا والاخرة من خلال منظار توفيقي يصطدم بمقولات اخرى تجعل من الدنيا عرضا زائلا وتافها ازاء الاخرة المرتجاة ، السؤال الذي نريد طرحه على ضوء مداخلة :- دنيا / اخرة هو ما الذي عطل حقوق الدنيا في المنظومة الاسلامية ؟ هل المقولات التعبدية وحدها ام ان قوة المنحى الصوفي في الفكر الاسلامي تقف وراء ذلك ايضا ؟ يقرر بهذا الصدد ان (التاريخ الاسلامي شهد سيطرة الفكر الصوفي بشكل عجيب على الخطاب الديني) مما جعل مسار الدين (يتلخص بالاعراض عن الدنيا) على ضوء هذه الحقيقة الهامة يتأكد ان جهد الاصلاحيين انصب على اعادة توازن النسب بين مقولتي الدنيا (المهملة دينيا) والاخرة التي يعمل لها الانسان المسلم ليظل الحل مرهونا بدعوة المتدينين (ان يرجعوا الى عقولهم ويتحركوا من موقع التخطيط العقلاني والاستفادة من التجارب البشرية .. فمع ورود الدين لايتم تهميش العقل ولاتجميده) اذن خلاصة فكرة هذا المفكر تكمن في العودة الى عقلانية متدينة او دين عقلاني لايسمح بوجود قراءة رسمية طاردة لسواها لان العقل اذا ماحسن استخدامه يقود بالضرورة الى التعدد لا الى الاحادية .. في العراق لم يظهر حتى الان جدل من هذا النوع ربما بسبب الهوس السياسي الذي تلبس بلباس الدين حيث اختفى المنحى

المعرفي تماما لتظل الشعارات وحدها ، الشعارات وثوقية جازمة غير قابلة لاي جدل معرفي بل هي تقبل الصراع وحده ربما لان الجدل العارف يكشف زيفها ويضعها امام اختبار علمي حقيقي ،من هنا تقلص دور النخب مثلما تراجع العقل لصالح عصبويات مقاتلة ومحتكرة للخطاب بطريقة ميلشوية هدامة .

* الدين العلماني / سروش / الانتشار العربي ٢٠٠٩ ص ١٥٥ / ١٥٦

- **اطروحة التدين الفردي :-**

عندما يتأزم الاصلاح بدرجة ما يصار الى البحث عن بدائل ، ربما تكون اطروحة التدين الفردي واحدة منها وهي تقوم على قاعدة ان التدين علاقة شخصية مع الخالق لاتحتاج الى هذا الكم الهائل من الوسائط والوسطاء ولاجلاء هذه الصورة لابد من الفصل بين التدين المؤسسي / السلطة ودين الناس ، الناس بوصفهم افرادا يتأملون في كتاب كونهم المفتوح ويقيمون علاقتهم مع هذا الكتاب بطواعية قابلة للتعدد والابتكار ، هناك اكثر من فائدة عملية لهذا النوع من التدين ابرزها مايلي :-

١- ان انتعاش مثل هذا الاتجاه الفردي يقلل من اهمية وهيمنة المؤسسات الضاغطة بل لايبقى هامش كبير لمركزياتها فالفرد هو المكلف دينيا وهو المعني بأدارة شؤون هذا التكليف ، ربما ينشأ اعتراض من نوع ان ليس كل الافراد قادرين على الاكتفاء بهذه الطريقة فليسوا جميعا فقهاء او مفسرين نقول :- ان الاكتفاء التام غير ممكن ولابد من الاسترشاد في بعض المسائل ولكن هناك فرق بين الاسترشاد والتبعية فالاسترشاد يحصل طواعية وعند الحاجة بينما التبعية قسر وتعميم قراءة

٢- ان الفردية في فضاء التدين تخلصنا نهائيا من مخاطر (الفرق الناجية) فالفرد بتدينه الخاص لايمكن ان يصبح تبشيريا ولاحتى تكفيريا انطلاقا من فرديته بل يسمح لغيره مثلما سمح

لنفسه بأختيار الطريق ، ولذا نقول :- ان التدين في اطاره الشخصي لاينتج عنه استقواء كتل أو فرق.

٣- ان اضمحلال تبشيرية الكتل في ظل انتعاش الفردية يسهم في بناء علاقات مدنية نعتقد انها اهم قواعد الاصلاح كما سنأتي على تبيان ذلك

٤- ان مثل هذا النوع من التدين ليس غريبا على التجربة البشرية او تأريخية الدين كما انه ليس جديدا او مبتدعا على الفضاء القرأني فالدلالات واضحة وصريحة بهذا الصدد نذكر منها قوله تعالى (وكلهم ءاتيه يوم القيامة فردا) مريم ٩٥ ، وقوله تعالى (ونرثه مايقول ويأتينا فردا) مريم ٨٠ او قوله في سورة الانعام ٩٤ (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم اول مرة ماخولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم انهم فيكم شركاء)

- **التدين الفردي .. روحانية جديدة**

من المشكلات التي تقع فيها الايدلوجيات الدينية والمادية على حد سواء انها تطرح نفسها بوصفها منهجا متكاملا بل تتباهى بدعوى التكامل وتنسى ان كل منهج ، كل رؤية تحتاج الى نقص (ضروري) يسمح بتحولات التجربة ومراقبة مفاجآتها على الارض ، هذا التكامل يحيل الى الوثوقية المطلقة التي تختزل الزمن كله في صورة لحظة مفترضة ، ثابتة يسعى الجميع لتكرارها بينما مايميز الفكر الليبرالي انه يتفادى مثل هذا الثبات لصالح تجريبية لاتضع العربة قبل الحصان بل تنتظر عثرات الحصان لتفكر بكيفية انقاذ العربة ! نعم يحتاج العالم الى مسحة الهية لكن بالتأكيد روحانية تعلمنا كيف نتذوق جمال العالم ، نستعمله لا ان نتفرج عليه فقط ،هذه الروحانية شعور يرافق العمل ولا يعطله بينما الايدلوجيا الدينية تتحنط في فضاء القول وحده ،كم من

الناس يتحدثون عن القناعة والشعور بأنهم ضيوف على هذا العالم ، كم يلهجون بقولهم (الملك لله) لكنهم يتهافتون واقعا على الثروة والسلطة بطريقة مرعبة ! اين اسلاميو اليوم من مقولة (الملك لله) ؟ الجواب :- ان الايدلوجيا عندنا هي هكذا ، شعار بلا عمل ، مانريد ان نقرره هنا ان الروحانية واحدة من القيم الانسانية الاصيلة وهي ليست هذا التقسيم القسري بين جسد الانسان وروحه ، تقسيم يراد منه ترويع الناس من حياة مابعد الموت بقصد ابتزازهم في دنياهم ، نحن نتحدث عن كيانية من نوع ما ، كيانية منتجة مشفوعة بقوة العمل الخلاق .

- **الروحانية وحق الشك**

مثلما نفهم ان الروحانية نتاج التدين الفردي فأنها تسمح بالشك حتما مثلما تسمح بالايمان وتسعى له وبما ان هذا النوع من التدين يمكن ان نسميه (شخصيا) فأنه يضمن بالضرورة كل حقوق الشخص ومن بينها الشك ، الشك حق شخصي مثل الايمان نفسه ، مثلما لك ان تؤمن لك ان تشك ايضا ، ان تتساءل ، وبالعودة الى القرون الاسلامية الاربعة الاولى ،قرون الايمان والشك معا نجد ان انتهاء هذه الفترة التي سمحت بالشك ذبل الايمان مع انتهاءها وهنا نقرر ماقررناه سلفا :- ان الدين معرفة وبدون الشك والمراجعة يصبح (ايدلوجيا) ، هذا التفريق يحيل بالضرورة الى نوعين من اليقين :- تأريخي وثوقي واخر معرفي، الاول يحصل بفعل التقادم لا بفعل الجدل والاثبات وهو عنفي لانه لم يعرض جلده لاشعة الشك ولم يسق جذوره بماء المماحكة الجادة ، نشأ صلبا معافى في ظل غياب النقيض بل هو قام على قمع النقيض اما الثاني فهو المعرفي المنفتح على قبول حتى مايخالفه ويمكن اجمال بعض الفروق:-

١- ان اليقين التأريخي الدامغ لاي جدل معرفي هو الذي وضعنا اليوم امام تقابل من نوع ايدلوجيا في مواجهة ابستمولوجيا وهي واحدة من معظلات الراهن العويصة .

٢- ان اليقين التأريخي هو المسؤول عن مضاعفة الاغتراب من خلال اختزال الزمن كله في لحظة (اصل) يتوهم الاصوليون امكانية استعادتها في كل مرة ويهدرون الراهن لاجلها ، وبالعودة الى جذور المشكلة لابد ان نذكر انها تأصلت بعد توقف لحظة (ابن رشد) وانكفاء عربة العقل المعتزلي كي يستمر (النقل) وحده مستفيدا من تراكم الزمن لتأصيل مروياته على انها اليقين الاوحد حتى صار العقل (بدعة) والبدعة (دينا) !

(٨)
أزمة الاصلاح بين الاجتماع والسياسة

عندما ننتقل بمفهوم الاصلاح من دائرة الدين الى السياسة والمجتمع فأن تشظيات هذا المفهوم تسير باتجاهات أكثر تعقيدا بل يحصل نوع من الجدل المتقابل/الدائري اذا صح القول ومرد ذلك الى عمق التواشج بين المنظومتين الاجتماعية والسياسية حيث تتغذى أحداهما على الأخرى الى درجة صعوبة الفصل أو التمييز خاصة واننا أكدنا في تشخيصات سابقة على حقيقة أن هناك ظواهر مجتمعية كان أساسها درسا سياسيا فاسدا قدمه (المصلحيون) أو (الطارئون) الذين لا همّ لهم سوى السلطة والتسلط... السؤال الذي يتجدد في هذا الموضع:بأيهما نبدأ؟هل ان اصلاح المجتمع يفرز اصلاحات سياسية بالضرورة على اعتبار أن الطبقات الحاكمة وافدة من هذه الحواضن وليس من غيرها أم أن هذه الطبقات هي الأولى بالاصلاح –بدءا- لأنها اذا ما تركت على حالها فأنها ستشكل عائقا أمام أي اصلاح،المجتمع أو غيره؟ إن مثل هذا التداخل بين فرضيات الأسباب والنتائج يوفر فرصة واسعة لتشتيت الجهد بل وكثرة الكلام أحيانا حول دوامة ملتبسة لا تتيح حتى للباحثين أن يقدموا لائحة حلول أو كشوفات بصدد مشكلة مزمنة ومعقدة أصبحنا نطلق عليها (المشكلة العراقية).

إن ما نريد أن نتأمله في هذا الموضع هو شكل الدولة لدينا،خاصة واننا نعاني غالبا من (تغولها) و (اتساع هيمنتها وعسفها)[٣٧] ولكي نفسر جانبا من هذه (الهيمنة) علينا ان نقرر بدءا بأن المجتمعات الأبوية (القبلية) تنتج دولا أبوية بالضرورة،يحصل هذا لأننا مأخوذون بمنطق (الأقلية والأكثرية) ليس بالمعنى السياسي المعروف (اقلية او اغلبية سياسية) بل هي عندنا تخضع لمنطق قبلي قائم على أساس الوفرة العددية للمكون او الطائفة ،ما يعني أن شكل الدولة ومفاهيمها إنعكاس لمفاهيمنا المجتمعية السائدة وبما أن المجتمع ما يزال متعلقا

بأفكار ما قبل الدولة فأن هذه الدولة تظل في عرف السياسة (دولة ما قبل الدولة) اذا جاز لنا التعبير وهنا مكمن التناقض والمفارقة التي تحتاج الى برامج سياسية عارفة يتبناها سياسيون عابرون لعقدهم الإجتماعية كي تتأسس لدينا عتبة أولى لمشروع الدولة الحقيقية لا وهم الدولة.

هناك أكثر من أطروحة بهذا الصدد : (الدولة الإجتماعية) في مواجهة الدولة الأيدلوجية بمعنى أن على الدولة أن لا تقدم أفكارا للناس بل هي تمثيل وخدمة إجتماعية لا غير،الدولة (إدارة) وليست ورشة أفكار وعقائد بل أن هذه الأفكار شخصية،في السياق ذاته تنشأ الحاجة الى (تسوية تأريخية)[٣٨] بين المجتمع ومفهوم الدولة،هذه التسوية تشير الى تاريخ الدولة القامعة المنفصلة عن مجتمعاتها والتي لا ترعاها أو تمثلها بل تتسلط عليها بينما يظل المجتمع قابعا في أثنياته التي تنفجر في لحظة ما لتحدث فوضى عارمة كالتي حدثت في العراق.

هناك مفارقات على صعيد (السياسة) ذاتها إذ أنها تعني أول ما تعنيه (سياسة المدن)[٣٩] حيث يتأزم هذ المعنى بالضرورة عندما تتراجع قيم المدنية وتتريف هذه المدن لتصبح أعراف القبيلة هي السياسة الوحيدة الممكنة أو لتصبح السياسة ذاتها تقليدا لأعراف القبيلة –لا فرق-،سياسة أبوية تسحق الأقليات لصالح الأكثرية كما أسلفنا ويغيب فيها مفهوم (المواطنة)..إن حياة ما قبل الدولة/ما قبل المدن لا يمكن أن (تُساس) بل (تقاد)،هذه الرؤية هي المسؤولة عن بحث المجتمعات المتخلفة عن قائد / رمز/ راعي لتصبح رعية خادمة تحت ظله،تماما كالقبيلة التي تطيع (شيخها)،بهذه الطريقة تصبح الدول الوهمية (مشايخ) والمدن (أفخاذ) وهنا لا بد ان تتخلخل منظومة الحقوق والواجبات حيث لا توجد حقوق بالمرة بل (مِنح) ومكرمات يمنحها الراعي لرعيته عندما يشاء مثلما تصبح الواجبات اكراهات أو إرغامات يتملص منها من يستطيع ذلك من دون أن تشكل لدى الفرد أدنى شعور بالإنتماء..نريد أن نبرز من خلال هذه المداخلة مستوى الترابط الهيكلي بين شكل الدولة والمجتمع لنقرر أن الاصلاح السياسي لا يتم الا من خلال إصلاح إجتماعي

وأن هذا الأخير لا يتحقق أيضا الا بأفكار راشدة،هذا هو المفصل الذي يتبادل فيه الحقلان/الاجتماع والسياسة/موقعي السبب والنتيجة، يحصل مثل هذا الإلتباس لشدة التواشج،كما نوهنا في بداية الورقة، نريد أن نقول أيضا:إن التغيير الطارئ سواء كان إنقلابا عسكريا أو إحتلالا خارجيا كالذي حصل لم يغير من الأمر شيئا لأنه يمثل تغييرا قشريا/صورة الحاكم ووصفه ليظل المجتمع بكامل ترسباته بعيدا عن فواعل التغيير وهو بهذا الابتعاد يعيد إنتاج ما تمّ إنتاجه من قبل.

هنا ينبغي أن نتحدث عن ضرورة وعي المجتمع ذاته بتصدعاته وهو لا يتم الا من خلال جملة إصلاحات ثقافية وتأريخية تتبناها قوى التنوير التي ينبغي أن تتبرأ من واقعها بعد أن تشخص أمراضه..ترى هل تستطيع هذه القوى أن تواجه معرقلات التنوير؟هل يمكن ذلك أم أن (غسيل الزنجي ليس سوى هدر للصابون)كما يقال..الأمر يتطلب أن يعي هذا الزنجي زنجيته لا أن نهدر عليه الصابون من خارج هذا الوعي.

- **أزمة اللامنتمي في المنظومة العراقية :**

نتحدث غالبا عن نخب واعية تعيد إنتاج تصدعات الذات العراقية ولكننا نخفق في تشخيص ملامح هذه النخب هل هي أجرام سماوية تأتي من خارج هذا الكوكب أم هي كائنات عادية عاشت معاناة الناس ذاتها وبالتالي فهي تتأثر بما يتأثرون به؟

أقول بإختصار : اذا كانت هذه النخب ذات أيدلوجيات سياسية/ رأي مسبق/قراءة أحادية فأن التعويل عليها يعني العودة الى المربع الأول أي أنها ستخوض صراعا ضد مناوئيها من أجل إثبات قراءتها وهذا هو المأزق الذي نريد أن نخرج منه،إذن بقي أن نقول بأن على هذه النخب أن تكون(لامنتمية) وهذا مفصل آخر من مفاصل الأزمة في مجتمعات يسود فيها منطق (الأكثرية) لإزاحة (الأقلية) وهو منطق قبلي- كما أسلفنا- يترتب عليه أن قيمة المرء بانتمائه الى جماعةٍ ما /حشد بل ان قيمة صوته ورأيه تقاس بمقدار قوة من ينتمي اليهم لا بأصالة الرأي ذاته وهنا يصبح هذا

(اللامنتمي) رقما خاسرا في ماراثون الأرقام الكبيرة،هذه مشكلة ثقافية من نوع خاص تقود بالضرورة الى سؤال آخر:كيف نستطيع-اذن- أن نعبر من أمة الإنقسامات/المكونات/الطوائف الى (أمة ثقافية) تبنى على مشتركات معرفية لا على أعراق وأصول يضيع فيها الفرد لصالح كتل وحشود تتضخم كماً دون أن تعرف كيف تصنع حياتها..بالطبع لا يحصل مثل هذا البناء في ظل هدر الفرد/اللامنتمي،هذا الهدر الذي يهدم الحضارات على حد تعبير كولن ولسن(هدر اللامنتمي يهدم الحضارات) وبالعودة الى معايشاتنا في التجربة العراقية ثبت بما لا يقبل الشك أن تنتمي لحضيرة حيوانات خير لك من أن لا تنتمي! إن مثل هذا السلوك الإجتماعي والثقافي يغذي العصبوية بكل تأكيد بل وفقا لهذه الطريقة تتحصن العصب وتتغذى على مر الأزمان كما أن مثل هذا المنحى يضع العقبات الهائلة أمام مهمة المثقف النقدي الذي هو بالضرورة (لامنتمي) ومقتضى هذه (الضرورة) انه اذا انحاز الى انتماء ما فأن مهمته النقدية ستخسر استقلاليتها وسيتحول الى مثقف (حزبي)يدافع عن رأي ضد رأي وليس مفكراً حرا من النوع الذي تحتاجه مهمات البناء على مختلف صعدها.

- **مقولة المستبد العادل :-**

تطرح هذه المقولة غالبا في سياق البحث عن اصلاحات سياسية خاصة بعد ان تفشل مشاريع الديمقراطية غير الاصيلة وغير المستندة الى قاعدة مجتمعية تتعاطى مع هذا المشروع بروح واعية حيث اننا نعرف جميعا ان الديمقراطيات لاتنبت الا في مجتمع معرفي يتمتع افراده بقدر كافي من الوعي ، وعي الذات ومسؤلية الاختيار دون الانسياق وراء شعارات عصبوية صادرة عن مرجعية الكتلة او الحشد وعندئذ لايبقى للانسان سوى ان يردد ببغاويا مايراد منه ، هذا النوع يطلق عليها ديمقراطية مكونات / جماعات / حشود ليس فيها للفرد / الصوت اللامنتمي اية قيمة ، نقول بعد ان يلصق قناع الديمقراطية المشوه على وجه لايلائمه نعاود الحديث عن حاجتنا الى (مستبد عادل) لانقاذ اللعبة التي تهرأت ، هذا ما سنطلق عليه (دورة الخراب) في السطور

القادمة.. لاشك ان هذا التوصيف يحمل تناقضا داخليا :- اذا كان مستبدا كيف يصبح عادلا ؟ (اما مستبد واما عادل) يظر هذا التناقض جليا عندما يأخذ هذا (العادل) صورة تجسيدية ما (قائدا اورئيسا اورمزا) ومرد هذه التجسدات يرجع الى ولعنا الدائم بالاشخاص لا بالمعاني ، هذه المرة نريد ان نطرح (القانون) بوصفه مستبدا عادلا ، مستبدا لانه لايحابي احدا ، لايساوم ، لايتنازل ، و(عادلا) لانه ينطبق على الجميع بدرجة متساوية ، ارى ان هذا التعديل في فهم المقولة بعد ترحيلها من الاشخاص الذين لم يجمعوا الصفتين معا الى فكرة (القانون)الذي نرفعه الى هذه المرتبة اجدى من الخوض في سجالات نظرية اصبحت بائدة بمعنى ان الحل يكمن في شرعية دستورية تحتاج بالضرورة وكما اسلفنا الى قاعدة مجتمعية تشعر بالحاجة اليها فعلا دون ان تتحايل عليها بشتى الطرق لتخرقها وهذا مادأبت عليه الجماعات الفوضوية التي تربت على (كره القانون) متذرعة بتبريرات شتى من بينها ان هذه القوانين / قوانين الدولة وليس المجتمع وبما ان الدولة لاتملك تخويلا اجتماعيا او شرعية ما فأن المجتمع يظل على مسافة منها ،هذه المسافة تحتاج الى تجسير او (تسوية) كما اسلفنا .

(٩)

افق الثقافة ومشكلاتها

يدخل مفهوم الثقافة عراقيا في اشكال من نوع ما فهي لم تزل تطلق على فنون الابداع ولم يتحول مدلولها الى مجمل انشطة الانسان وفعالياته .. الثقافة هنا هي التدوين / البلاغة / الفن والحرف الجمالية الاخرى كالمسرح مثلا ، بهذا التضييق اصبحنا نتعامل مع نخب بل ان تاثيرها اجمالا اصبح نخبويا معزولا ولدينا اكثر من شاهد على مثل هذا الانعزال ، ففي خمسينيات القرن الماضي عندما طرأت الحداثة على الشعر لم يطرأ المفهوم ذاته على الاقتصاد او السياسة او الاجتماع ، شعر حديث في بلد متخلف ، من هنا يبدا الاختلال ليعوم المبدع او المثقف في فضاء مضبب لايراه فيه احد بل هو يرى نفسه دون سواها لتتأصل النرجسية وتتبني مثلما تتضخم البلاغة على انقاض واقع فقير ، الكلمات كبيرة والحاضن ضيق ، بفعل هذا العزل او الانكفاء تحجم تأثير الثقافة بعد ان اصبحت ثقافة حرف وتقنيات يشتغل فيها اصحاب حقل ما دون التواصل مع الحقول الاخرى ناهيك عن القطيعة الاصلية مع المجتمع او الجمهور .

- **بين (الجواهري) و (قاسم) ..**

لحظة قطيعة

قبل انقلاب عام ١٩٥٨ كان يمكن الحديث عن نوع من التقابل بين سلطة السياسي وضدية الثقافي او نقديته التي تشكل سلطة مضادة اذ ان تاريخ الثقافة العراقية القريب يحدثنا عن عدد من المظاهرات التي خرجت في اعقاب قصيدة القيت في جامع الحيدرخانة مثلا لكن الذي حصل ان تغول السياسي بعد ٥٨ كان من نتائجه انحسار الثقافي وخروجه خارج مسرح التأثير ، ربما تسعفنا هنا المشادة الشهيرة بين الشاعر الجواهري والزعيم عبد الكريم قاسم اثناء استقباله لوفد من الادباء و الفنانين وكما رواها لاكثر من مرة الفنان يوسف العاني حيث ترك الجواهري على اثرها العراق

منذ مطلع ستينات القرن الماضي ، هذا الخروج كان لصالح السياسي الذي استفاد بالطبع من هشاشة النخب الثقافية التي سارعت لتعويض مقعد الجواهري الشاغر بدلا من التضامن معه او المناداة بأحقيته ، والحادثة كلها كانت بسبب مقال الجواهري (ما الذي يحدث في الميمونة ؟) الذي اغضب (قاسم) فأدى الى لحظة مفصلية على صعيد حرية الراي في العراق ووجود الثقافي منافسا وناقدا للسياسي ، لم يقف الامر عند هذا الحد بل هناك ما هو اخطر عندما عمد الحاكم بعدئذ الى احتكار المال حيث لا مال للثقافي الذي لا يدخل في باب الدعاية او الاحتفال الحكومي فنشأت على اثر ذلك جماعات (ثقافية) متسولة تستحث الحكومة لا الدولة على اغداق العطايا بحجة (دعم الثقافة) ولا حديث عن استحقاقات قانونية للثقافة !.. ان التفريق بين عطايا الحكومة ودعم الدولة يستتبعه بالضرورة تفريق بين الثقافة بوصفها دعاية واعلاما موجها او حلم امة يدخل في رصيد راسمالها الرمزي ، الحكومات تمول العقل المتصالح معها ، ليعيش الحلم الابداعي والثقافي الصرف نبذا ابديا ، الحكومات لا تمول غير (الاحتفال) الذي تسميه (ثقافة) بينما الثقافة الحقة هي اسئلة تضع الفرح الايدلوجي الزائف موضع مساءلة لتنتج كل ما هو اصيل وصالح للبقاء ، هكذا يتأزم المعنى على الصعيد الثقافي وتتضبب الصورة الافتراضية للمثقف لنضع هذه الكلمة (مثقف و ثقافة) بين مزدوجين انطلاقا من حقيقة ان منظومة اجتماعية متغالبة ومشروخة في جوهرها القيمي المزدوج غير قادرة على انتاج مثقف عابر لعقد مجتمعه بل هي تنتج (ببغاوات ثقافية / عمال مطابع / مراسلي اخبار/ منتجي نصوص عالقة و مبهمة) اما الثقافة بوصفها منظومة وارادة تحول ، عدة نقدية ، موقفا نتمثله سلوكا كاملا فهو امر يصعب الحديث عنه في العراق ! المثقف هنا اصولي بحكم ارتداداته الاجتماعية القارة ، قداسي بحكم ادمانه على الثبات والعادة حتى وان كان علمانيا كما يدعي ، ربما هذه السطحية في فهم وظائف الثقافة والمجانية في اطلاق صفة المثقف هي التي سهلت استدراجه الى ثقافة الاحتفالات فأصبح يقاد دون ان يشعر ، وبعضهم يشعر ! يتلذذ بغفلته مقابل دعوته لمهرجان ما ، تهمه كارزما

الصور اكثر من مقصديات الوظيفة الثقافية ، من الصعب ان نتحدث هنا عن رسالة ثقافية او مشروع لان ثقافة الفرجة والسياحات المهرجانية لا تقام الا في ظل غياب هذا المشروع ، لذا فان الحكومة التي بادرت الى ترميم (شارع المتنبي) مثلا كانت تدرك ان مثقفها يحتاج الى (متحف) / فضاء ذكرى / مساحة فرجة يتعاطى و يتبادل فيها مقتنياته الثقافية او هواياته كما يحصل في (سوق الغزل) الذي يقصده هواة الطيور و الحيوانات في نفس صبيحة الجمعة / جمعة المثقفين وشارع المتنبي ! لا فرق بين الفرجتين ولا بين الوظيفتين ولا حتى بين التوقيتين / الجمعة زمانا / وبعد الظهر يفرغ المكانان (المتنبي والغزل) حيث لا اثر للجماعتين معا (مطيرجية ومثقفين) ! لان الامر لا يعدو كونه فرجة محدودة المكان و الزمان .. أي معطى ثقافي نتحدث عنه بعد هذا الوصف ؟ اية ثقافة نقدية تقدم مكاشفاتها باتجاه انتاج قيم بديلة ؟ اين النصوص الكبيرة التي تدق جرس الجمال في عالم القبح ؟

- **ثقافة اللعنة والالغاء :-**

ببساطة نستطيع القول بأن الثقافة هنا ، في واحدة من توصيفاتها ،الغائية ومثما يتدافع المجتمع عبر حركة اقصائية بين مكوناته واطيافه تتدافع اجيال الثقافة لاقصاء بعضها البعض ، حدث هذا منذ ستينات القرن الماضي عبر جبهتين (على صعيد الادب مثالا) توزعت ايدلوجيا بين الشاعرين فاضل العزاوي وسامي مهدي ، رافق هذا التقابل سجال اقرب الى الصراع لا الى الحوار وهو الافق الذي تضيع فيه حقائق الادب والثقافة .. اذن مامعنى الثقافة التي لايسود فيها الحوار ، تصبح بلا شك ثقافة (لعنة) ويصبح النص لاغيا لسواه (لايهدف الى معرفة الانسان والعالم بقدر مايهدف الى مناقضة نص يتقدمه او يعاصره) ٤٠ وعندئذ تذهب الفعالية بمجملها نحو (الاقصاء) لا (الاستقصاء) نحو الحجب لا الكشف .. ان مثل هذه الاستبصارات ليست تشاؤما ولاتحاملا على واقع ثقافة مختلة وسلوكيات يدفع ثمنها الموهوبون بل هي محاولة لاستيضاح مفاصل الاشكال .

- **المثقف ببدلته القديمة !**

يجري الحديث غالبا عن المثقف بوصفه عابرا لعقد مجتمعه ، كاشفا لعيوبه وكما بينا في الاسطر السابقة غير ان مثل هذا الكلام يصدق تماما اذا كانت الثقافة بكامل عدتها النقدية اما ثقافة الاجترار والتواطؤ فانها لاتطرح مثقفا من هذا النوع بل تطرح كائنات نفعية تتضامن مع السياسي النفعي لتسويق حراك فارغ يوهم بانه حياة او فعالية وهو ليس كذلك بالمرة .. المثقف العراقي غير بعيد عن امراض مجتمعه فهو لم يعبر الى هذه البحبوحة المسماة (ثقافة) عاريا ، سليما معافى بل عبر ببدلته القديمة !

- **ازدواجية متآخية !**

بهذا الوصف لم تسلم الثقافة من ازدواجية المجتمع ذاته وهي (ازدواجية متآخية مثل كريات الدم الحمر والبيض)[٤١] متصالحة مع تناقضاتها بل لاتجد عيبا في التناقض ولاغرابة في النشاز ، من هنا نشأ نموذج المثقف المزدوج المنبعث من مفارقة خطاب(قيمي) وسلوك براغماتي (نفعي) ، هذا التشخيص ينبغي ان ننتبه له جيدا فالمثقفون بحكم التلقين الثقافي اتفقوا على خطاب (قيم) بينما السلوك يخذلهم غالبا ، هذا جزء من ازدواج المجتمع الذي تأسلم خطابه بينما ظل سلوكه جاهليا في اغلبه فالاعتداء المشرعن والجريمة المحمية سائدة في شتى المناحي بينما الصلوات تتعالى من الافواه ، لاغرابة في فضاء الازدواج الذي نشأ فيه المثقف وعبر منه ليمارس ازدواجا ثقافيا بعد ان تسلح بعدة لغوية تبريرية جعلته اقدر على تبرير ازدواجيته من سواه ، ولعل اخطر التداعيات في هذا المفصل ان فضاء الازدواج هذا يخذل أي سعي للاصلاح ، ذلك لان المرء المتآخي مع تناقضاته لايجد مبررا لاصلاح منظومة التناقض مادامت مصالحه لم تتضرر بسببها بمعنى ان الخطاب القيمي يضمن له (الوجاهة) التي يرجوها بينما براغماتية السلوك تضمن له مصالحه العملية وهو بهذا التصالح الفادح لم يخسر شيئا يدعوه الى الاصلاح او المراجعة بل لايشعر بالحاجة الى شيء من هذا القبيل .

- **التطهير الثقافي :**

مثلما تتواتر الهجرات إجتماعياً عبر حركة إقصاء وتدافع داخل مكونات المجتمع يحدث الشيء ذاته داخل الوسط الثقافي فالتصفية المعنوية وإسقاط الصوت الثقافي بإستخدام أدوات أيدلوجية أو إجتماعية أمر حدث ويحدث خاصة بعد أحداث ٢٠٠٣ وهي الفترة التي ظهرت فيها فراغات تسمح بمرور العابرين والطارئين على منظومة الثقافة ما أنتج الغرائب التي لا توصف،لا يمكنني أن أنسى ذلك الربيع الدموي/ربيع ٢٠٠٧عندما وصلتني رسائل تهديد غامضة في بداية الأمر،تهديد بالقتل والنسف والتهجير إكتشفت فيما بعد انها صادرة عن أحد المسوخ الذين يحسبون أنفسهم على الإعلام والثقافة،بهذا الإنحطاط وصلنا الى ما يمكن أن ندعوه بـ(الأغتيال الثقافي) إغتيال الجسد هذه المرة طريقاً لإغتيال الصوت..هؤلاء من يأكلون لحومنا في (صحن الثقافة)على حد تعبير أدونيس:

مرةً في بيروت

قرأت تقريراً يقول :

(حقق الذين يأكلون ..

لحم إخوانهم تقدماً كبيراً/

كانوا سابقاً يأكلونه في صحن الطبيعة ،

وهم اليوم يأكلونه في صحن الثقافة)[٤٢]

ترى كيف تصبح الثقافة حاضناً للجريمة؟ بالطبع يحدث هذا في فضاء العصبويات/المدن المتريفة والمصالح العابرة للقيم بإعتبارها ناتجاً من نواتج المفارقة التي ذكرناها:خطاب قيمي يقابله سلوك براغماتي،لم تكن مثل هذه الحوادث عابرة أو ذات دلالات شخصية صرفة بل هي تصدعات أخلاقية وجدت مكانها الرحب في فضاء اللامساءلة، في الثقافات النفعية كل شيء جائز حتى التصفية بل أن مثل هذا السلوك أصّله مثقفوا الأحزاب الذين أدمنوا الصراعات حتى نشأت أجيال تتصارع من

غير أحزاب أحياناً بعد أن أصبح الصراع شهية مفتوحة أو ما يشبه الصحن الكبير الذي يأكل فيه بعضنا البعض.

- **ثقافة المركز**

من اللافت في الثقافة العراقية ان اغلب مثقفي المدن تتجه اعينهم الى المركز الجغرافي (بغداد) ليس بسبب مركزة دوائر الثقافة وسطوع الاعلام في العاصمة بل هناك اسباب اجتماعية اخرى من بينها ان المدن المتريفة تسود فيها جملة من التواطآت الاجتماعية القائمة على مبدأ الترضية حيث لامكان للمعايير الفنية الصرفة ، الامر الذي يضطر اصحاب التجارب الناهضة الى مغادرة المكان بأتجاه افق اوسع ، شي اخر على هذا الصعيد هو ان هذه المدن بلا تنمية واذا ما ظهرت بوادرها بدرجة ما فهي زائفة يستغلها الاقوياء اجتماعيا لصالحهم لالصالح الثقافة ولالصالح مدنهم حتى ، ليس من السهل ان نتحدث عن ثقافة في ظل عسكرتاريا اجتماعية / جماعات وملل ونحل ، هذه بعض ملامح المكان العراقي الطارد والذي تتجسد فيه عنفية الثقافة المستمدة من عنفية المجتمع .

- **ثقافة (العمولة)**

ظهر هذا النوع من العمالة الثقافية / العمل ثقافيا مقابل (عمولة) بعد ٢٠٠٣ تحت عناوين شتى من ابرزها ما اطلقوا عليه (منظمات المجتمع المدني) ، هذه الموضة ساهمت في تشويه المشهد الذي يعاني تشوهات بدءا عندما انخرط عدد من الشغيلة بدعوى مزاولة النشاط الثقافي مقابل عمولة مادية يتقاضونها من ممولين غامضين يدعون انهم (منظمات انسانية) والحصيلة مزيد من الانشطة الوهمية الفارغة والمربحة ماديا في ان .. في مثل هذا الفضاء الربحي يصعب العثور على فعالية ثقافية جادة وهذا ماعانيناه عند الشروع بتجربتنا في مشروع (البديل الثقافي) خريف ٢٠٠٥ حيث انطلقنا بطريقة التمويل الذاتي (التكافلي) بعيدا عن هذه الجوقة / جوقة التهريج في عرس امبريالي جديد انخرطت فيه اسماء ويافطات كثيرة.

- **الاعلام ثقافة ربحية**

من الظواهر اللافتة بعد ٢٠٠٣ انتقال عدد من الاسماء الثقافية والشعرية الى حقل الاعلام فأبدلوا صفاتهم التي تظهر على الشاشات من شاعر او قاص الى (محلل سياسي) او مقدم برامج والسبب يكمن في ان الاعلام الجديد اكثر ربحية من الاشتغال في ورش (الجمال) الفني الفقيرة ماديا ، ترى لمن بقيت هذه الورش ؟ بالتأكيد هناك قلة من (اللامنتمين) الذين عزلتهم حركة التدافع العصبوي فراحوا يسكنون في اللا جهة !

- **حرية الرأي والكتابة**

أصبحت هذه المقولة أكثر من فارغة في فضاء الإملاءات السياسية والدينية/فضاء (الوعي المغلق) حيث (الصمت) هو الحرية المتاحة الوحيدة،هناك أيضاً أفق آخرمتاح بدرجة الصمت،أعني الكتابة الملغزة،الصراخ في وادٍ غير ذي سمع،خارج منظومة التأثير وهي هجرة من نوع ما/كتابة من خارج السور،هي صمت حتى وان كانت تدويناً،هذا الموقف يشبه كثيراً ما فعله المتصوفة إزاء ضغط المؤسسات سياسية كانت أو كهنوتية عندما عمدوا الى (الإشارة) لتظل (العبارة) حكراً على خطباء المؤسسة،العبارة مصدر التأثير بينما الإشارة حديقة الكلام الخلفية التي لا يراها أحد،وها نحن اليوم بعد مئات السنين نحاول أن نفك هيروغليفيا متصوفة غابرين وننتظر في الوقت نفسه من سيفك رموز كتابتنا التي إمتدت على أكثر من ثلاثة عقود..ترى ما الذي تغير بعد ٢٠٠٣؟ هل ما زلنا ننتج هيروغليفيا بالطريقة ذاتها؟ بالطبع سيحتج على مثل هذا التوصيف من يسمي الفوضى حرية متناسيا ان الفوضى لا تضمن امنا لاحد وان المكاشفات التي نقصدها محض مغامرة في ظل هذه الفوضى

- **الحرية مفهوم لا يتجزأ**

قبل أن نسأل عن حرية المثقف ينبغي أن نسأل عن حرية المجتمع لأننا ببساطة لا نستطيع أن نتصور مثقفاً حراً في مجتمع مقيد أو مستعبد،الحرية مفهوم لا يتجزأ،نمط حياة متكامل وثقافة مجتمعية تسود وتنتشر بدرجات متساوية..ترى هل حرر السياسيون الناس عبر إنقلاباتهم المتتالية؟ما الذي فعله التغيير الأخير؟لقد أثبتت الممارسة التأريخية أن السياسي الذي يرفع شعار تحريرك لا ينوي إطلاقك في فضاء حر كما نتوهم بل يخطط للسيطرة عليك (إستعبادك) مرةً أخرى ولكن بشعارات وآليات جديدة،عبوديتك هي ذاتها ولكنها تنتقل من سيد الى سيد،في عراق ما بعد ٢٠٠٣ تغيرت آليات الإستعباد لا أكثر وهي بهذا التغيير ليست حرية الا إذا نظرنا إليها من زاوية (مقهى سقراط) الذي يجلس فيه المعنى جنب وهمه ويتآخى فيه النقيض مع النقيض..ولإجلاء هذه المسألة يمكننا مراقبة الأمور التالية:

١. لقد أثبتت التجربة العملية أن الإستبداد ممارسة مجتمعية إذ أن ما حصل في العراق أكد هذه الحقيقة فحالما تراجع إستبداد السلطة تقدم إستبداد المجتمع فأصبحنا نعاني من أعراف مستبدة وميليشيات نصبت نفسها حارساً على قيم ومفاهيم لا يمكن المساس بها بل أن آلية الترويع أصبحت أشد لأن مساحة المجتمع أوسع من مساحة أية سلطة سياسية مستبدة وهنا لا ينفع تسامح السلطة القائمة في ظل ما هو أعنف منها:المجتمع.

٢. عندما تتسع مساحة الفوضى ينشأ وهم من نوع ما،وهم الحرية التي تتراجع الى أضيق حدودها في ظل غياب القوانين الضامنة لها،في مشهد الفوضى المتلبسة بلباس الحرية لا حرية للفرد مطلقاً بل هي للأحزاب المسلحة التي تستطيع أن تحمي حريتها بقوة السلاح.

٣. إن جمود المجتمع بفعل الإستلاب المستمر وإقتصاره على فعاليات إستهلاكية محددة يديم من خلالها عيشه الغريزي فقط عطّل سؤال الحرية على المستوى العام وجعله سؤالاً نخبوياً محاصراً بعنف الجماعات وهذه هي نقطة الإرتكاس التي نعود إليها في كل مرة أي أن تظل الحرية مطلباً لا غير/حلماً مرتجى ووعداً سياسياً يقود الى إستعباد من نوع آخر.

- **إنقسام المشهد**

يمكن الحديث هنا عن شروخ الثقافة العراقية بعد ٩نيسان ٢٠٠٣ وأبرزها ما تجسد في هجرة المثقفين الى الإعلام كما أسلفنا،رافق ذلك إرتداد عدد منهم الى حواضنهم الأثنية والطائفية فصرنا نشهد لأول مرة إصطفاف صورة المثقف الطائفي الى جانب المثقف الحزبي والغريب أن الكثير من هؤلاء الذين نعرفهم لفقَ قصصاً وإدعاءات وهمية تثبت علاقته بأحزاب معارضة نظام صدام وهي قصص مزعومة في أغلبها يُراد منها إعادة التأهيل والدمج مع إصطفافات العهد الجديد،حصل هذا في جبهة (مثقفي الداخل) ترى ما الذي جاء به مثقفو الخارج بعد أن كنا ننتظر مشروعهم القادم من ضفة أخرى؟ هؤلاء المهاجرون عادوا بأفكار ما قبل الهجرة! ومشروعهم الوحيد هو أنهم يبحثون عن فرص عمل في مشهد التزاحم الجديد وأغلبهم لم يجدها.

- **الثقافة الشعرية**

جدل الصوت والصدى

هناك أكثر من فرق بين الشعرية بوصفها وظيفة جمالية يمكن تحقيقها في شتى مناحي الفكر والكتابة، والشعر بوصفه جنسا أدبيا محددا له قواعده وتوصيفاته التي جرى العمل على تحديثها منذ منتصف القرن العشرين ، ما نقصده هنا هو الشعر ، النص

المكتوب بهدف القراءة والإنشاد معا ، المائدة اللغوية المفتوحة التي أصبحت لفرط انفتاحها تثير شهية الادعاء ، في العراق تحديدا هناك شراهة شعرية بل استبداد شعري يطلق عليه البعض ، ولأجل مواجهة هذه الظاهرة يمكن إثارة السؤال التالي : ما سر هذا التزاحم ؟ ولماذا الشعر وحده دون غيره ؟ إننا غالبا ما نميل إلى تقديم إجابات نقدية وهذا ما فعلناه في أكثر من موضوع سابق ولعل ابرز هذه الإجابات كانت تنصب على سبات النقد الذي يسمح بمرور المقلدين والناشئة الهواة بلا قدرة وعبورهم إلى بهو الشعر الأمر الذي يذكرنا بغياب المعايير والمناهج النقدية ذلك لأن الحداثة الأدبية التي ادعيناها يوما ما أصبحت معادلا للفوضى واللامعيار .. إننا هنا ما زلنا في دائرة التأويل النقدي لظاهرة التزاحم الشعري عراقيا بينما هناك مغزى اجتماعي لهذه المسالة ، يحتاج بالضرورة إلى كشف من نوع خاص ، قد يتعلق الأمر بدءا بالنشأة المدرسية فالتعليم الذي يقوم على أساس التلقين (تحفيظ المعلومات) دون اختبارها يضفي أهمية على المدونة باعتبارها مادة مكتوبة يحفظها الناس عنك وهذه أول خطوة على طريق كارزما الشعر والشاعر ففي المدارس مثلا كنا نلمس فضيلة الإنشاد بل تعد مثل هذه المسألة واحدة من الميزات التي يتميز بها طلبة معدودون يؤدونها دون غيرهم وفي السياق ذاته لا تبتعد كارزما المدونة عن فكرة التواصل / الاستمرار / الخلود التي تدعمها تماثيل شعراء في عدد من الساحات بينما لا نجد ترميزا من هذا النوع للمشتغلين في حقول أخرى .. من هنا يبدأ الحلم / حلم أن تنتج مدونة أو تنشدها كي تصل بك فيما بعد إلى استحقاق الذكرى الخالدة و (التمثال) تجسيدا ماديا لمثل هذه الذكرى ، ربما ننظر الآن إلى أحلام من هذا النوع على أنها بدئية ترجع إلى مرحلة الطفولة أو المراهقة لكنها تشكل بداية الأغراء ، إغراء أن تصبح (صوتا) بينما الآخرون (صدى) ، أن تكون منشدا بينما الآخرون متلقين ، أن تتحدث وهم يسمعون ، وعلى أساس هذا التزاحم بين الصوت والصدى يترتب جهدك ومسعاك : كم تستطيع أن تدفع الآخرين إلى حافة (الصدى) وكم تستطيع أن تتميز بوصفك (صوتا) لا يباريه غيره من الأصوات ؟ في المهرجانات نشهد مثل

هذا التزاحم على منصة (الصوت) التي تخرجك من صالة جلوس (الصدى) وعندما تتاح لك هذه الفرصة فعليك أن تفكر ألف مرة كيف تستثمرها لتثبت دعواك وهنا يصبح المهرجان مرافعات شعرية لإثبات حجة (الصوت) وقوته .. بالطبع تأسس لدينا مثل هذا التقابل على أساس قولة المتنبي الشهيرة :

فدع كل صوت غير صوتي فإنني أنا الطائر المحكي والآخر الصدى

في مثل هذا التزاحم اللامريح بين الأصوات والأصداء يتراجع الشعر بوصفه كشفا وتأملا إنسانيا عميقا ليقوم على أنقاض ذلك نمط آخر من الكتابة الملغومة بقصد الإنشاد كما ينشأ أيضا نمط آخر من السلوك (التغالبي) حيث يخرج الشعر هنا من كونه رافدا ثقافيا ليصبح تعبيرا مرضيا عن الأنا النرجسية التي تغذي فكرة التغالب الاجتماعي وهي واحدة من أمراض الشخصية بالمفهوم الذي يطرحه علم الاجتماع ، يضاف إلى ذلك كله أن مثل هذا التزاحم غير المبرر إبداعيا يصلح أن يستثمره البعض لأغراض غير فنية كالحصول على وظيفة أو مقعد في دوائر الثقافة وهو مسعى لا يتحقق غالبا إلا من خلال (تعارف) شعري أو تمهيد قائم على أساس أن هذا شاعر! بل إن مثل هذا التعارف هو واحد من أساليب شتى . ما نريد أن نخلص إليه هو أن هذا التزاحم الذي يأخذ في ظاهره عنونة شعرية له تعقيداته الاجتماعية التي ترتبط بشبكة مصالح وغايات لا يجد البعض حرجا في تبنيها واستثمارها ما دام الباب مفتوحا على مصراعيه وهنا تتضبب صورة الشاعر العابر لهذه العقد،خاصة عندما نقف إزاء وهم شعري كبير لا يسمح بترميم تصدعات الثقافة بل هو واحد من هذه التصدعات المريعة ، والسؤال الأعمق : ما ستكون عليه صورة الثقافة التي توصف بأنها (شعرية) وشعريتها من هذا النوع الذي نرصده الآن؟ بل هل يمكن أن يسهم طابور الشعراء المتربصين بالمنصة في إنتاج ثقافة نقدية يتوخاها مشهد مأزوم كالمشهد العراقي ؟ ! تلك هي المسألة .

- **إشكالية المرأة وفضاء التأويل**

يظهر البعض إشكالية المرأة في المجتمعات الإسلامية على أنها إشكالية دينية بينما هي في جوهرها إشكالية اجتماعية أي متعلقة بالوعي الاجتماعي الذي يستثمر في أغلب الأحيان مقولات دينية لتبرير خرافته أو لا معقوليته ولأجلاء هذه المسألة بالذات نقول :

إن المقدس / النص يقدم جدلا من الأفكار وان العقل الاجتماعي هو الذي يميل بكفة هذا الجدل إلى هذه الجهة أو تلك فيرد في القرآن الكريم مثلا (كلوا من طيبات ما رزقناكم) آية ٥٧ البقرة ، مثلما يرد في مقابل ذلك قوله تعالى (وان تصوموا خير لكم) .. لا يخفى أن الموردين مختلفان غير أننا ننظر إلى التقابل بين الإباحة والامتناع فالصوم هو امتناع عن أشياء كثيرة من بينها الأكل وتأسيسا على هذا المعنى فالمسرفون على أنفسهم يقرؤون (كلوا) وحدها بل يتوسعون فيها حد الإفراط بينما المتعبدون حد الجوع يعلون من حد الصوم تغاضيا عن (الطيبات) والأمر ذاته في مواضع أخرى كالتراب والماء مثلا أي أن الصحراء التي نزل فيها الإسلام أولا كانت تحتاج إلى قول من قبيل (وتيمموا صعيدا طيبا) غير أن النص ذاته لا يخلوا من الإشارة إلى مركزية الماء في الحياة (و جعلنا من الماء كل شيء حي)هنا يحتاج القارئ إلى فهم متوازن بين اضطرار التيمم في الصحراء وترف المدن التي ترتع بالماء ، نريد أن نقول بان النص يقدم أفكاره أو جدله وان العقل الاجتماعي غالبا ما يمارس إنتقائيته على هذا النص ، الأمر ذاته ينطبق على المرأة التي ينظر لها على أنها (جسد) مورس ضده (الوأد) مثلما مارس (الزنا) باعتباره مكمنا للذة والخطيئة حيث يتم تكريس هذه النظرة تغاضيا عن مداليل طهرانية نساء من نوع (مريم) التي ورد ذكرها في النص المقدس ذاته ما نقصده هنا أن العقل الصحراوي هو الذي وقف إزاء فهم المرأة عاجزا متذرعا بقراءات أصولية ابتدعها هذا العقل

المتطرف ليضع المرأة في خانة (الجسد) وحده بعيدا عن (الروح) منتجة العرفان وعن (العقل) منتج البرهان فلا هي بالعرفانية ولا البرهانية إنما هي (عورة) يستلذ بها في السر غالبا ولذا فعليها أن تتحجب لا عن فضاء النظر فقط بل عن فضاء الفعالية الثقافية والمعرفية بمجملها ، من هنا أصبحت ثقافة الستر والحجاب بديلا عن ثقافة الحضور والمشاركة لينتج لنا هذا الفهم مجتمعا ذكوريا تسنده اللغة بمقولات تذكير من قبيل ما يذكره ابن جني (الأصل هو التذكير) مثلما تسنده مقولات (القوامة) على النساء و (المُحرم) دون أدنى نظر في التحولات التاريخية التي ينبغي أن تطرأ على تأويلنا لمثل هذه المعاني ، باختصار هناك قراءة اجتماعية للنصوص أصبحت الآن ثقافة (عرف) لا(معرفة) وهي لا تقابل إلا بثقافة مضادة بعيدا عن أسلوب الشعارات أو الاحتجاجات المفرغة بل يراد تفكيك الأصل النظري للإقصاء وطرح البدائل معرفيا لفضح لعبة الذكورة إذا صح القول .. يظهر لنا المشهد العراقي تعقيدا على هذا الصعيد بل انقسام المرأة ذاتها إلى مشهدين : الأول استسلامي يشعر كما لو أن الجمود والإقصاء في صالحه . والثاني شعاراتي يميل إلى الاحتجاج ولكنه بلا حجة ناهضة أو دراية معرفية كافية ، وهنا لا نضع اللوم على أي من هذين الفريقين ذلك لأننا نعرف حجم التجهيل الذي عانته المرأة فاللاأدرية تصبح تحصيل حاصل قلة المشاركة والإنتاج مثلما الأستسلام ينتج عن السبب نفسه ، ما تحتاجه المرأة الآن حقا هو معرفة هذا الواقع : كيف نشأ ولماذا ؟ ابتداء بتفكيك المقولات ومراجعة مراحل التأسيس الأولى لهذا الفهم السائد ولن يتم هذا المسعى إلا من خلال ورش معرفية تتصدى لهذا الموضوع .

- **(البديل الثقافي) مشروعا و رؤية :**

كان هذا المشروع الذي اطلقناه خريف ٢٠٠٥ محاولة لمواجهة النكد وخطوة للتأسيس في ظل ثقافة الانقطاع و القطيعة ، بنيناه على مكاشفات حادة تساءل وتفضح التصدعات العميقة في التجربة العراقية ولعل المجلة التي تحمل العنونة نفسها (البديل الثقافي) كانت المنبر الاعلامي للمشروع الا ان فضاء اللانتباه وضخامة حجم

المشكلة العراقية ضيقت مساحة التاثير والتفاؤل حيث ادركنا تماما ان العراق يعاني من مشكلات اجتماعية عميقة بل ضجيج اجتماعي اذا صح القول لا يدع فسحة للصوت الثقافي ، الهاديء المسالم المدني ، والانكى من كل هذا ان المؤسسات والمنابر (الثقافية) استقبلت دعوتنا النقدية لانتاج بدائل على انها معارضة لسلطاتها التقليدية !

بين البديل والمعارض

قد يأخذ مفهوم (المعارض) بعداً سياسيا طاغيا الا ان (البديل) ليس كذلك اي ان ثمة فرقا معرفيا بين المفهومين فالمعارضة تنبىء عن صراع ما بينما (البدائل) انتاج وصيرورة،المعارضة ازاحة قسرية بدرجة ما بينما البدائل استشراف لما هو افضل .. يحصل مثل هذا الخلط لان المفاهيم لدينا تتعلق بالسلطة بل بالاستبداد ايضا فكل اعتراض (معارضة) وكل تصحيح او تصويب هو ايضا كذلك ولا مناص امام السلطات سوى قمع هذه التصويبات بمجملها مهما كانت نوايا المعارض او البديل ولذا فأن الانظمة الاستبدادية تفرز معارضة بالضرورة ولكنها لاتسمح بانتاج (بديل) الامر الذي يعني استمرار ازمتها حتى بعد سقوطها لان ملامح البديل لم تتبلور وان القوى التي كانت تعارضها تبنت هاجس المعارضة واليات عملها دون ان تفكر معرفيا ببدائل من تعارضه وقد تلجأ الى بدائل جاهزة ومرتجلة لتقع هي الاخرى في اخطاء لاتقل ضررا عن اخطاء المنظومة التي ازاحتها..مانريد ان نؤكده ان انتاج (البديل) عمل فكري معرفي ينبغي ان يرافق نضال (المعارضة) والا فانها ستضل بلا سقف نظري يؤسس لمستقبلها ، هذا على الصعيد السياسي المحض اما على صعيد الفكر والثقافة فان انتاج البدائل وتوالدها بأستمرار هو الحركة الطبيعية للاشياء وهو الحراك الدال على حيوية التجربة ايا كانت،ينطبق هذا الكلام على مفهمة (البديل الثقافي) الذي يعيش ازمة خاصة ازاء مؤسسات الثقافة التقليدية لان هذه المؤسسات بصريح العبارة سلطات ثقافية ولانها كذلك فهي تخلط بين (البديل) و (المعارض)..تنظر لـ(البديل

الثقافي) على انه معارضة لسلطتها وليس حراكا طبيعيا تتطلبة الحركة الثقافية لاية امة من الامم او جماعة من الجماعات..المؤسسات تكرس الجمود لكي تؤبد استبداد سلطاتها ولكي تبقى على ماهي عليه من امتيازات اما هدف الثقافة ومقصدها الحقيقي فهو في خانة الممنوع والا ماسر هذا الصمت ازاء مطلبيات الوعي بظرورة ايجاد بدائل ثقافية؟ ماسر هذا الاهمال؟ في عراق اليوم يجري المال السياسي كما يجري الماء في الانهر وعندما نصل الى موظوعة دعم الحراك الثقافي نواجه بجفاف هذا الماء وتقشف المؤسسات حد اللاشيء!! انه الخوف من سؤال الثقافة الذي يجعل من عدم دعمها طريقا (حضاريا) لقمعها! ولكنها (تدور) كما قال غاليلو..ليس بأمكان احد ان يوقف حركة الاشياء النابضة بل هو يوقف ذاته دون ان يعلم..بناءا على هذه الرؤيا اصبحنا نفكر بضرورة تنشيط الثقافة خارج مؤسساتها التقليدية لانها مؤسسات قامعة بالوصف الذي ذكرناه.

الثقافه خارج مؤسساتها

ربما بفعل الاضطرار نذهب الى توصيف من هذا النوع الذي يثير اكثر من تساؤل : خارج مؤسساتها..اين؟ في العراء؟..على طريقة الصالونات الادبيه و الثقافيه ام هو عمل منظم اخر يتبناه ناشطون ثقافيون لهم رساله مغايره؟ ومهما تكن طبيعة مثل هذا العمل فانه يصطدم بنقص التمويل اللازم،المؤسسات الرسميه وحدها التي تمتلك التمويل اما من يعمل خارجها فعليه ان يمول نفسه و هذا ما عانيناه في مشروع البديل الثقافي الذي تبنى رسالته خارج منابع التمويل فتباطأت خطواته ولكنها لم تتوقف، هنا سيكون الهدف الابعد هو الموقف الثقافي ازاء فعاليات وظيفيه مكروره و لتأصيل مثل هذا الموقف نحتاج بالضروره الى فاعل جديد اطلقنا عليه (الناشط الثقافي) و هو المبدع الذي يخرج من نرجسيته الفرديه الى عناء هذا الموقف..البديل الثقافي ما زال يعمل خارج سقف التمويل الرسمي لانه يمتلك رؤيته الخاصه حول موضوعة المؤسسه و عليه ان يدفع ضريبة هذه الرؤيه.

المثقف المريض .. يتطاول بأمراضه !!

بقدر ماتحمل مفردة (المثقف) من دلالة مفتوحة فان ادعاءها اكثر مرونة وانفتاحا خاصة في العراق الذي يشكو ازمة ضابط ومعيار حيث يصبح الادعاء في اي مجال امرا واردا ومقبولا بل لانجد من يتصدى له الا نادرا وعلى نطاق محدود،وبصدد الثقافة بالذات نقول:-ان من اعظم مشكلاتها لدينا كثرة ادعياءها وتهافتهم على ادعاء شتى الصفات للالتصاق بها او استثمار ماتحمله من كارزما لاغراض لاعلاقة لها باهداف ومقاصد الثقافة الحقيقية،وطبقا لهذا الوصف يحق لنا ان نتحدث عن امراض الثقافة او نمط المثقف المريض اي الذي جاء الى هذا الحقل لا برسالة ثقافية بل بعقدة لاعلاقة لها بهذه الرسالة كما انه لايمتلك امكانية حقيقية يقدمها في هذا المجال .. ترى ما الحل؟ في العراق لاحل على هذا الصعيد لان خلق الازدواج والمجاملة يوفر فسحة للادعياء يتحركون فيها بل ويكتسبون شرعية وهنا يهدر البناء الثقافي بأكمله..مثل هذه الظاهرة الاحتشادية على منصة الثقافة حدثت في دول اخرى كاليابان التي تعرضت لانهيارات الحرب ولكن لنتامل كيف تعامل اليابانيون مع هذه المسألة،يشرح لنا الكاتب فيصل عبدالحسن في مقاله (المثقف المريض) كيف بنت اليابان صورة المثقف (المحترم) او الانموذج (الذي يتمنى الطلاب ان يكونوه) وذلك باتباع طريقة فرز وتشخيص الدوافع (فمن كان يحب ان ينال المزيد من المال رشحوه للعمل في بورصات المال ! بعد اعداده في احدى الدورات السريعة..ومن كان كسولا فيما يقدمه للناس من ابداع ارسلوه الى خبراء نفسيين ليبحثوا في ماضيه عن سر مشكلته..ومن كان يحب الشهرة السريعة قدموه للتلفزيون للافاده من مواهبه) وبذلك يكونون قد اشبعوا حب الظهور في ذاته اما الذين لامواهب حقيقية لديهم (صار مصيرهم النهائي كعارضي اعلانات في برامج التلفزيون) وخلال هذه الفترة كلها يؤكد الكاتب ان راتب (المثقف المريض) يقبضه دون نقص او اساءة الى شخصه،بهذا الفرز دخل الجميع الى ورشة الانتاج الوطني الياباني ولكن كل حسب مقدرته الحقيقة،هنا لانملك الا ان نبدي اعجابنا بهذه العقلية المنتجة التي تضع الامور في نصابها ولاتستسلم للعشوائية

تحت اي ظرف كان،اليوم في العراق المبتلى بالادعياء كم بينهم من يستحق ان يعالج نفسيا ! وكم بينهم من لايصلح لغير برامج الاعلان في التلفزيون وكم وكم..بل كم بينهم من لايصلح لشيء بالمرة لكنهم (مثقفون) على الطريقة العراقية..هؤلاء هم المسؤولون عن الضجيج في فضاء القول وهم رواد ميادين اختلاط الحابل بالنابل..يتقاطرون على منصة المهرجانات ولايمكلون شعرا،يتساءلون عن الحقوق بلا واجبات،وعن الامتياز بلا استحقاق يذكر..هؤلاء الذين يتشدقون بحناجر صاعقة هم المسؤولون عن صمتنا الاظطراري في بعض الاحيان !

(١٠)
الإصلاح التكاملي

بعد اكثر من رؤية اكدت ان هناك فسادا ثقافيا شاملا ينهض سؤال الأصلاح: هل يمكن الحديث عن أصلاح ثقافي ما في ظل أختلال مرافق أساسية أخرى كالأجتماع و السياسة مثلا ؟ لقد نوهنا في أكثر من مفصل الى تداخل العلل و الأسباب الأمر الذي يحتاج الى أستراتيجية أصلاح شامل بمعنى أن الأصلاح الذي ننشده ينبغي ان يكون تكامليا /الأصلاح الثقافي يتواتر مع أصلاح أجتماعي بالضرورة،ذلك لأن المجتمع هو الحاضن الأساس لأنتاج بنى الثقافة و أنساقها و لا يتم مثل هذا المسعى ما لم تسبقه أرادة تجعل السياسي يكف عن استثمار التصدعات و العيوب لصالحه،إن مثل هذه المسيرة الأصلاحية التكاملية تحتاج إلى قاعدة يبدأ منها..ترى ما هي القاعده؟

- **المدينة هي القاعدة**

ينهض المكان / المدينة بوصفه مفصلا هاما في مسيرة الأصلاح إستنادا إلى خراب سابق / ترييف المدن العراقية عبر برامج خططت لها و نفذتها إرادات سياسية متعاقبة ،و لاننا نعتقد بأن الثقافة معطى مدني إذن لابد من السؤال الذي يحرج إعتقادنا : كيف يمكننا أن نأمل صدور مثل هذا المعطى عن عصبويات قروسطية لا تغادر معتقداتها إلا بالأدعاء أحيانا ؟ أما على صعد الأصلاحات الأخرى كالديني مثلا فقد نوهنا إلى إطروحة الأسلام المدني التي تحتاج بالضرورة إلى قيم مدنية تسبقها و الأمر ذاته بالنسبة للأصلاح السياسي الذي يعاني خلله الخاص بدءا من العنونة (سياسة) و هي تعني كما أكدنا سياسة المدن .. كل هذه المفاصل تحتاج إلى تمدن أو مدنية بكامل إشتراطاتها كي نتحدث بعدها عن معطى ثقافي أو عن سياسة و عن دين مدني، يرافق كل هذا نشاط مجتمعي قائم على أساس المواطنة و إحترام الحريات المكفولة بسيادة القانون .. هذه هي قاعدة الأصلاح التي ينبثق عنها سؤال: هل هذه المدن التي نتحرك فيها اليوم تصلح ان تكون منصات إصلاح أم هي تراصف بيوت لا أكثر تنقصها

سلطة القانون الذي يضمن الحريات مثلما ينقصها الأحساس باننا في عالم كوكبي لا مجال فيه لثقافة الأنغلاق أو الأغلاق بالقوة و الأكراه؟ لنتأمل ما الذي نجنيه لو حدث العكس؟ لو فشل مشروع التمدن الكبير لصالح طفيليات الممرات الضيقة ؟ كيف يمكننا أن نتحدث عن حوار ديني/ حوار أديان ؟ و ماذا سيبقى من مفهوم السياسة سوى سلطة الأكراه؟ ماذا يبقى من الثقافة سوى ظرفية مناسبات المديح و الرثاء؟ نقول لابد من تمدين الحياة العراقية كي نصل الى نتائج شاملة، من أهمها كما نعتقد :

١. إن المدنية الآن هي معادل الحضارة و هي أس الأصلاح الأجتماعي الذي ينقلنا من الخضوع لشريعة الغاب إلى دولة القانون والحريات.
٢. في حال تحديث المجتمع على أسس مدنية سنضمن وبما لا يقبل الشك أن مثل هذا المجتمع سيفرز طبقات سياسية ذات أفكار عصرية مناوئة للتخلف وهذا هو جوهر الإصلاح السياسي الذي يذهب بالأمة نحو حياة سياسية نظيفة.
٣. تصبح مثل هذه القاعدة الصلبة من المجتمع المتمدن والطبقة السياسية العصرية فضاءاً للإسلام المدني الذي يكرس قيم ومبادئ التسامح مثلما تكرس السياسة مفهوم المواطنة بدلا عن الإستقواءات العددية التي تعود بنا الى ثقافة الغزو والحروب.
٤. يصبح مثل هذا الفضاء بالضرورة فضاءاً ثقافياً صالحا للحوار وإنتاج الرأي دون السقوط في صراعات الإلغاء والتهميش،ذلك بعد أن تتبني الذائقة على أسس جمالية سليمة وتتعزز ثقافة المعيار،ولإجلاء المعنى المراد ينبغي أن نعاود التأكيد بأن المدينة ليست عمرانا فحسب بل هي نمط علاقات تتخطى العُقد المغلقة الى رحابة الفهم المشترك والمتبادل حيث يصبح قبول التنوع وأحترام الخصوصيات جزءا من مبادئ الناس وقيمهم،ولكي ننقذ أفكارنا هذه من رومانسية التمنيات لا بد من التنبيه أيضا الى أن هناك عقبات إجرائية يضعها الفاشلون أمام أي تطلع من هذا النوع،هؤلاء هم المسؤولون عن إحباط الحياة العراقية،موجودون في كل مكان/في الإدارة والسياسة والثقافة

أيضا،يتواطؤون بطريقة غريبة على إفشال كل مشروع حيوي بل إن كل حديث عن المدينة والمدنية يحسبونه إعتداءا على مستعمراتهم الضيقة،بالطبع ان الإنسان الذي يسكن في جحرٍ ضيق لا يملك تصورا عن الحياة الكبيرة و أحيانا لا يريد أن يملك..إذن كيف يعمل التنويريون؟ لا نريد أن نرسم صورة قاتمة لمشهد قاتم أصلا كما أن ما نقوله ليس نوعا من جلد الذات بل هو كشف لتجربة عشناها جميعا ولا نريد أن نتواطأ عليها جميعا،هذه هي التجربة العراقية التي تراجعت فيها مظاهر الحياة وتقدمت فكرة الموت بكل ألوانه الجسدي والثقافي المعنوي،علينا إذاً أن نكشف مضادات التنوير وعوامل إحباطه وسعيا بإتجاه هذا الهدف المحدد نضع الآن هذه الخطاطة/ خطاطة الأصلاح التكاملي التي نشير من خلالها الى أهمية التنمية الشاملة و عدم الأقتصار على الجهود و النجاحات الفردية لأن ثقافة الحشد التي يعاني منها العراق تبتلع الأفراد مهما كانت جهودهم كبيرة و ناجحة .

- **إشكالية الوعي المدني**

تنبع هذه الأشكالية من حقيقة أن الفارق بين المدنية و التخلف فارق وعي و بسبب هذا التباين الجوهري يصبح الحديث شائكا بين المثقفين وأرباب السياسة ذلك لأنك تطالبهم بتاثيث قطار الحركة الذي لم يصعدوا إليه يوما؛ هكذا تنشأ العلاقة بين المثقف و السلطة على أساس من سوء الفهم أو إنعدامه أحيانا و إختلاف الوظيفة وتناشز الأهداف و الغايات ..المثقف إبن المبادرة بينما السياسي إبن التكرار و العادة و النمط ، إننا نطالب بالتمدن كي نتخلص من أفقية العلاقات،نتحول من سكونية المكان الى حركيته ،من ثبات المفاهيم الى تجددها ،من كساد الزمن و صمغيته الى جريان المبادرة و التخليق ، غير أن مثل هذا الحديث يصبح حديثا بين مستويين من الوعي لا يفقه أحدهما الآخر (حوار طرشان) كما يقال و ربما بسبب مفارقة عدم التواصل يذهب الزمن هدرا و يبقى كل شيء على حاله ،تتكرر

المطالبات على أسماع من لا يستجيب ..ترى هل يغرينا مثل هذا الجمود بأعادة طرح مقولة (المثقف العضوي) مجددا و هي مقولة تجمع بين الفكر و إجرائياته أم ماذا؟ هذه هي إشكالية الوعي المدني في فضاء مغلق بقصدية تامة /إشكالية عناء إيضاح الواضح!

- **المدينة ليست (اصلا) !**

من المشكلات العويصة بهذا الصدد والتي تشكل وعيا مضادا للوعي المدني المنشود اعتقاد شرائح واسعة من المجتمع العراقي بحقيقة ان الريف هو الاصل وان المدينة ورم زائد على جغرافيا الوطن ! الامر الذي جعل الريفيين حكاما وغير حكام ينظرون بعين الريبة لابناء المدن بل يعدونهم لا اصل لهم ! ما يعني ان المدينة لا تصلح ان تكون (اصلا) من الاصول بالطريقة التي يفهمونها ،هذه واحدة من المفاهيم العراقية الغريبة التي انبنى عليها ان الريفي مهما تقادم وجوده في المدينة فانه لا يريد ان يتمدن بل يظل ريفيا من باب الانشداد الى الاصل وضرورة عدم تضييعه ، ان بعضا من هؤلاء قضى وطرا طويلا من عمره في بلدان الغرب لكنه عندما عاد ذهب مباشرة الى ارياقه عادا ذلك اصالة وحسبنا دليلا السياسيون الذين عاشوا في مناف غربية عادوا بأجندات قبلية وطائفية كنا نعتقد انهم غادروها بحكم الثقافات التي احتكوا بها .. هؤلاء باختصار يعدون التخلف الذي نشأوا عليه هو عين أصالتهم وان الريف (بعاداته غير المشذبة) هو الاصل الذي ينبغي ان لا يضيعوه او يستبدلوه ! لذا فان مثل هذا الفهم يسهل عليهم بل و يدعوهم الى استباحة المدنية و قيمها لان المدينة بلا (اصل) ! اجد ان شيوع وتداول مثل هذه المفاهيم ، الاصل بالمعنى القبلي العرقي الذي يقود الى اصالة زائفة يشكل مهادا مزمنا لكل اصولية طاردة لقيم التمدن مثلما يشكل اغراءا لاستثمارات السياسي الذي لا ينبني عرشه الا على اسس تالفة من هذا النوع ، وفي النهاية يتضامن الجميع على انعاش الاصوليات واحباط المشروع المدني

الذي يعاني ازمة حقيقية في العراق والبلدان التي تشهد ظروفا مشابهة للظرف العراقي .

- **العراق المدني ..عراق مهاجر!**

يمكننا ان نتحدث الان عن عراق آخر، مدني ولكنه مهاجر أي ان هناك عراقين:العراق الجغرافي(الاصولي) الماكث على الأرض بأعرافه القبلية وتقاليده وسياسيه الذين يستلهمون هذه الأعراف ليحولوها الى أعراف سياسية يستعذبها الجمهور ويتماهى معها، وعراق آخر/عراق النخب والأقليات وأبناء المدن الذين إنقطع أملهم بالتغيير المنشود،هؤلاء حملوا العراق في حقائبهم غناءً وتراثاً وروحاً وأرضا طيبة لم يبقَ منها سوى ذكرى في نفوسهم،هؤلاء مسالمون ومخلصون أيضاً شعروا أن مشروعهم قد فشل هنا فغادروا القافلة تاركين (الجمل بما حمل) لمن هم أقدر على سرقته وإستغلاله أبشع إستغلال في أسفار لا طائل من ورائها..اليوم يرمقون أرضهم المحترقة من وراء الحدود،ينظرون الى (الجمل) كيف أخذ بالهزال حتى بانت عظامه غير قادرين على إنقاذ روحه،غير قادرين على شيء بالمرة سوى أن يرسلوا زخات شجنهم عبر الغناء الأصيل والقصائد الحارة وتذكر أيام طفولتهم في حارات بغداد والمدن العراقية التي اندرست وتحولت الى عشوائيات أرياف وإحترابات دموية لا تسر أحداً،ينبغي هنا أن لا نقيّم هذه الصورة على ضوء حسابات عددية فاسدة/أقلية وأكثرية ليقال إن العراق المهاجر هو الأقل وأن العراق الجغرافي المقيم هو الأكثر ليخلص القائلون بعد هذه النظرة القاصرة الى رأي قاصر أيضاً أي أن يضحى بالأقل لصالح الأكثر،ذلك لأن هذا الأقل كان نواة المشروع/مشروع الدولة وروحه أيضاً،ترى هل تفكر هذه الحشود المستبدة بإسترداد ذلك الروح المهاجر أم أن المستبد لا يفكر؟

- **مقولة اليأس /مقولة الأمل**

بعد هذا كله لا بد أن نتحدث عن أمل ما ولكن يجب أن ننبه الى أن الأمل في العراق أصبح مقولة سياسية مثل الأعياد التي لا فرح فيها،إنها بهذا الوصف نوع من الكهنوت

السياسي الذي يستثمر غفلة وبساطة الجمهور،هناك أكثر من مقولة بلا واقع،أقصد اليافطات السياسية التي تستفيد من أزمة المعنى في ظل فخامة الألفاظ، هذا الطريق هو واحد من آليات تدمير المعنى كما أسلفنا في بداية البحث..الأمل هنا ترنيمة ليس الا و أذا أردنا أن ننقذها من هذا الهراء فيجب أن نبحث لها عن فضاء حقيقي/واقع لا أن نبقيها ضديدا لغويا لمقولة (اليأس)لا غير..هل أصبح الأمل مقولة ميتافيزيقية؟يبدو أنها كذلك في ظل ثقافة مؤسساتية وظيفتها ستر العيوب وهذا ما أكدته في بيان أصدرته خريف ٢٠٠٥كنت قد قلت فيه(المؤسسات نتاج الأدلجة و الأدلجة عموما في بلادنا العربية دأبت على سياسة ستر العيوب وإخفاء المتناقضات فهي لا تقول للناس:إنكم تعساء ولا تهمس للمصاب بالسرطان:إنك ستموت..تفعل ذلك لأنها تفكر بالإعتياش مؤقتا على البقايا السليمة من جسده التالف!) هذا الكذب،هذه الخدعة هي نوع من الأمل الذي تشيعه مؤسسات الأيدلوجيا ونحن هنا بهذه المكاشفات القاسية لا نريد أن ننشر عورات (الجثة) العراقية المفتوحة الجراح بل نرغب أن نشير الى جهة العلاج الذي يسعف الناس قبل أن يصبحوا جثثا!

- **مغزى الشهادة :**

في مقدمة هذا البحث كنا نخشى على زمن الشهادة ان ينقطع والان بعد ان استوفت حصتها من الزمن المتاح اصبحنا نخشى عليها ان لاتكتمل .. هذه هي محنة الشهود الذين يتوقف تدوينهم عند نقطة ما بينما يظل الزمن جاريا بأحداثه التي لايعرف مصيرها احد ، الابدية لا الزمن هي التي تعرف ، الله بعلمه المفتوح يرى النهايات وحده ، يرى الحقائق كاملة ولكنه (ينتظر) على حد تعبير تولستوي (يرى الله الحقيقة ولكنه ينتظر) .. نحن اصحاب الاعمار المحدودة لانستطيع ذلك لذا ندلي بشهادات ناقصة .. في العراق / عراق الاحداث الكبيرة يترادف الشهود الزائلون ، بعض الناس يموتون دون ان يتمكنوا من ادلاء اية شهادة ،مغدورين او مساقين الى حروب لارأي لهم فيها او سجناء يموتون كمدا وخيبة ، بعضهم الاخر يسمي موته شهادة ، هذا الصنف من الشهداء الشهود اكتشف ذووهم في مابعد ان

موتهم كان سلما لسلطة المتربصين وذريعة ل (دولة اخرينا) كما يقال اما نحن الكتاب فنلجأ في شهاداتنا الى الكتابة وهي نقش على ماء في مجرى الزمن العراقي الهائج ، والسؤال الذي نطلقه اخيرا :- ماقيمة انك لاتستطيع ان تفعل شيئا سوى ان تدلي بشهادة ؟ هل هي رسالة ضاق بها الحاضر ذرعا فطلبت لجوءا الى المستقبل ام انها نوع من تبرئة الذمة ؟مافائدة ان نتحف تاريخ (المشكلة) بأرشيف شهادات ؟ هناك اكثر من سؤال يظل مفتوحا كالجرح على هذه الارض المضمخة بدماء صناع الحضارات / العبيد والكهنة والجنود المأخوذين الى مصير غامض ، ارض ملغومة لاتتيح لك ان تتقدم حتى بوصفك شاهدا ، ماقسى هذه الوظيفة التي تنغص عليك حتى النوم / وظيفة ان تكون الشاهد !

ملحق

الاصولية الجديدة .. صورة الشرق المعاد
- قراءة معرفية –

لايمكن فهم صعود الحركات الاصولية في العراق الى موقع السلطة والقرار الا من خلال محاولة تحليل مايجري في المكان المحايث / المنطقة والشرق عموما لنفسر بعدئذ هذا النوع من التصالح الامريكي مع اعداء مفترضين اذ سرعان ماسنصل الى استبصارات جديدة بهذا الصدد والا كيف نفسر هذا الاستبدال المربك للدكتاتورية السياسية بحركات اصولية ستفرز دكتاتوريات بالضرورة ؟ هل غفل العقل الامريكي عن مثل هذه النتائج البديهية ام ماذا ؟ هناك ماهو اسبق من الواقعة العراقية اذ ان امريكا لانقول سمحت بل صنعت اصوليات متعددة في المنطقة ودعمتها بوسائل شتى لاغراض ستتضح من خلال هذه المداخلة ، ولايجاز الفكرة علينا ان نطرح محورين بهذا الصدد :-

١- نشأة الحركات الاصولية ودعمها امريكيا في المنطقة

٢- الغاية المتوخاة بعد طول هذه المفارقة

لتبيان مفارقة النشأة يذكرنا المفكر ادوارد سعيد في كتابه (الثقافة والمقاومة) بأن (الكثير من هؤلاء الناس بما فيهم اسامة بن لادن وطالبان الافغان كما هو حال المجاهدين وهم المقاتلون من بينهم كانت الولايات المتحدة قد دعمتهم وغذتهم في مطالع الثمانينات ابان الغزو السوفيتي لافغانستان)ويذكر لنا في السياق ذاته (ان مجموعة من المجاهدين قدموا الى واشنطن عام ١٩٨٦ وحياهم الرئيس ريغان داعيا اياهم :- مقاتلو الحرية)٤٣ .. هل اعتقد العقل الامريكي وقتئذ ان هؤلاء المجاهدين سيرجعون الى بيوتهم بعد انتهاء التهديد السوفيتي ام ان الموضوع برمته يهدف الى تهيئة المنطقة / الشرق عموما وجعله مسرح عمليات لصراع اصولي ديني يراد له ان يكون عدوا مصطنعا بعد انتهاء الحرب الباردة ؟ بالتأكيد لايعقل احد ان هؤلاء المقاتلين سيتم تسريحهم بهذه البساطة ولذا فأن الخيار الثاني هو المأمول منذ لحظة انشائهم ودعمهم وهذا هو التشخيص الذي اشار له(سعيد)

ايضا (لقد اصبح الارهاب بمثابة ستار تمت صناعته منذ نهاية الحرب الباردة على ايدي صناع السياسة في واشنطن) والامر ذاته ينطبق على فصائل القاعدة الاخرى وفروعها التي اخذت تتزايد هنا وهناك ناهيك عن الدعم الذي قدمته امريكا وان كان بأساليب اخرى لحركات اصولية اخرى في العراق او سواه من الدول العربية التي حكمتها دكتاتوريات غاشمة ، هذه المرة بأطالة عمر الدكتاتوريات ودعمها مؤقتا لكي لايبقى بديلا عنها سوى التطرف الديني حيث نعلم جميعا ان نظاما قامعا من النوع الذي حكم العراق لم يدع فرصة او هامشا لاية معارضة مدنية تتبنى الحوار والمكاشفة طريقا لطرح برنامجها الامر الذي اوجد ارضا صالحة لنمو اليوتوبيا الاصولية التي تستغل نقمة وسخط الناس على النظام الحاكم والوصف ذاته ينطبق على دول اخرى مثل ليبيا وسوريا ومصر واليمن مع اختلاف النسب والتسميات الاصولية التي نشأت في كل بلد من هذه البلدان ، يظهر الامر جليا عندما احتوت الخارجية الامريكية فصائل المعارضة العراقية بعد تعجيزها عمليا ومن ضمنها الاسلاميون الذين سيطروا على المشهد في ما بعد برعاية امريكية لاتخفى على احد ، ربما تكرر المشهد ذاته في مصر مع (الاخوان المسلمين) فبعد سقوط مبارك (انقلبت قواعد اللعبة) و(دقة ساعة الاخوان) على حد تعبير (امين قمورية) حيث بدأ الحديث عن (تيار رسمي امريكي ينحو صوب عقد صفقة حقيقية مع حركات الاخوان المسلمين في العالم العربي لادارة المرحلة المقبلة بالتعاون مع الجيش) ٤٤ وفي السياق ذاته ينقل لنا كاتب المقال تصريح وزيرة الخارجية الامريكية هيلاري كلنتون بعد ايام من سقوط مبارك بأن (واشنطن لاتعارض وصول الاخوان المسلمين الى السلطة في مصر) حيث قالت بالحرف الواحد (ان أي حزب يلتزم بنبذ العنف والديمقراطية وحقوق كل المصريين يجب ان تكون لديه الفرصة للمنافسة على اصوات المصريين) وعى ضوء هذه المباركة فقد اصبحت جماعة الاخوان تعيش عصرها الذهبي سواء في مصر او في تونس بعد عودة زعيم حزب (النهضة)

المنبثق من الجماعة الشيخ (راشد الغنوشي) والجدير بالذكر هنا ان الجماعة في مصر سارعت لتأسيس حزب سياسي خلافا لادعائاتها السابقة اطلقت عليه (حزب العدالة والحرية) برئاسة (محمد مرسي) بعد ان اعلن هذا الاخير بأن حزبه سيكون مدنيا وليس حزبا دينيا ! ولايخفى ان مثل هذه الادعاءات غالبا ماتطلقها الحركات الاصولية في بدايات عملها وصولا للسلطة ثم تنقلب عليها دفعة واحدة وهذا ما حصل في مصر فعلا حتى نضجت اللحظة التي استدعت (عبد الفتاح السيسي) عبر (دورة خراب) كما سنوضحها في الاسطر القادمة.

. مايهمنا من هذا العرض ان انقلاب ومداولة قواعد اللعبة بدءا ب (ابن لادن) منذ ثمانينيات القرن الماضي ولم ينته بحزب الاخوان (العدالة والحرية) قد تم وامريكا على الطرف الثاني من طاولة هذه اللعبة ، والسؤال مكررا :- هل غفلت امريكا مرة اخرى عن حقيقة ان الاخوان المسلمين بدعوتهم الى الاسلام (الاصلي والبدائي) سيرجعون (مصر الى مكة القرن السابع) على حد نبوءة ادوارد سعيد ام انها تريد ذلك ضمنا كما ارادت للعراق ان يعود الى فترته المظلمة ؟ والسؤال الاعمق :- لماذا فتحت امريكا الباب واسعا امام الاصوليات المتطرفة لتشل منطقة الشرق الاوسط بعد ان ادعت مرارا بأنها ستؤثث لنا شرقا اوسطيا مترعا بالديمقراطية وحقوق الانسان ؟ اليست الاصوليات نقيضا تقليديا لاية ديمقراطية مزعومة ؟

ان قراءتنا لحقيقة ان امريكا هي التي مهدت للصراع الاصولي تبقى قراءة عائمة مالم نعد قليلا الى موضوعة الاستشراق / نظرة الغرب للشرق لنفك لغزية هذه اللعبة خاصة وان الباحثين في دراسات الاستشراق قدموا لنا نتائج واضحة في هذا الصدد منها اعتقاد العقل الغربي بأن هناك (خصائص ثابتة) لكلا المنطقتين :- شرق / غرب وهو المعنى الذي اطلق عليه صادق جلال العظم (ميتافيزيقيا الاستشراق) اذ ينبني على هذه النظرة ان الشرق لايصلح الا لهذا المناخ الاصولي وعلى الغربيين عموما ان يحافظوا على سمة الشرق هذه أي ان يعملوا

على بقائه اصوليا بدائيا متعلقا بالغيب ولاعلاقة له بمنجزات الحداثة ، يقول (سعيد) في كتابه (الاستشراق) :- (ان جوهر الا ستشراق هو التمييز الذي لايمحى بين التفوق الغربي والدونية الشرقية) وبالعودة الى المستشرقين انفسهم نجد ان المشورات التي قدموها لحكوماتهم الاستعمارية كانت تنطلق من هذا الفهم فماسينيون مثلا (كان يعتقد بأن واجب فرنسا يكمن في دعمها رغبة المسلمين في الدفاع عن ثقافتهم التقليدية وعن القاعدة التي مارسوا الحكم على اساسها وعن الارث الذي وصل اليهم من اسلافهم) ٤٥ ونحن نعرف جميعا هذه القاعدة وارث الاسلاف الذي لم ينتج سوى الاستبداد ، فحوى النصيحة هنا ان على فرنسا ان تدعم المسلمين للبقاء كما هم وهذا هو مغزى (الخصائص الثابتة) للشرق الذي صوره الاستشراق أي ان هذا المكان لايصلح لشيء غير الذي توارثه .. اليوم تعمل امريكا بالفهم ذاته حيث ان (الخبراء في شؤون الشرق الاوسط الذين يقدمون المشورة الى صانعي السياسة مشبعون واحدا واحدا من دون استثناء بالاستشراق)٤٦ .

ينتج عن ذلك كله ان دعم الاصوليات التي تعيد مصر الى (مكة القرن السابع) والعراق الى فترته المظلمة لم يحدث الا انطلاقا من صورة تأريخية متوارثة للعقل الغربي عن هذا الشرق الذي لايصلح لغير هذه الصورة ، وتأسيسا على هذا كله يمكننا ان نفسر ولو قليلا غرابة الدعم الذي قدمته امريكا للاصوليات سواء في نشأتها الاولى (القاعدة) او من خلال دعم الدكتاتوريات ليبقى التطرف خيارا وحيدا للناس .. اليوم هذه صورة الشرق الاوسط الكبير، انظمة دكتاتورية تتهاوى بديلها اصوليات تحيل المكان رمادا بصراعاتها اللامتناهية مايؤكد ان اللعبة مصممة اصلا لاعادة صورة الشرق القديم ، البدائي ، الغيبي ، المفصول بفارق ثقافي مزعوم عن حركة صناعة الحياة ..تظهر على هذا الصعيد ايضا مفارقات من نوع ان الاسلاميين انصاعو لهذه اللعبة بسرعة خاطفة والسبب يكمن في بريق السلطة الذي ينتظرهم ناهيك عن انصياع الناس / العامة والنخب منهم ايضا

خاصة من انخرط في واجهات الاصولية الجديدة المصنوعة على الطريقة الامريكية .. ان مثل هذا الانصياع يضع اكثر من عقبة امام ثقافة التنوير والتحول حيث يبدو الناس وكأنهم ادمنوا صورتهم التقليدية فلايستطيعون مغادرتها بل لايحاولون ذلك حتى وان اكتشفوا ان (الاخر) يريد لهم ثبات هذه الصورة الجامدة ، هناك شيء ما يشدهم الى هذا الثبات المزمن اقوى من المكاشفات النقدية وابعد من التحريض وهذا ماسندعوه بثقافة العادة او دين الاباء ، والدين الذي نقصده هنا الطريقة / الوعي المتأصل والراسب

- **جاذبية الاسلام**

ربما على ضوء فهمنا لسلوك العقل السياسي الغربي وحرصه على ابقاء الشرق على حاله يمكننا فهم مقولة (جاذبية الاسلام) التي طرحها (مكسيم رودنسون) في عنونة كتابه الذي يكشف من خلاله مساعي الغرب في تعامله مع الشعوب المستعمرة فهو أي الغرب يسعى لجملة امور منها :- (١- الحفاظ على كل ماغدا عتيقا وباليا في حياتها الثقافية والروحية اليومية

٢-التحالف مع اكثر القوى محافظة ورجعية وتخلفا في مجتمعاتها

٣- تمجيد حكمة الشرق الدينية والفلسفو ربانية والتنظير لها بأعتبارها متوارثة ابا عن جد من غابر الازمان وبصفتها طريق الخلاص الحقيقي .. بعبارة اخرى :- كلما كان اسلام العالم الاسلامي اكثر بعدا عن العصر واعظم ارتدادا الى الوراء واكثر التصاقا بكل مافات كان اكثر جاذبية للغرب)٤٧

بالتأكيد لااحد يحقق مثل هذا الاسلام البدائي (الجاذب) للغرب سوى الاصوليات المتطرفة القامعة لمحاولات الاسلام المدني او الحضاري .. التطرف وفقا لهذه الالية وحده القادر على تأبيد صورة الشرق المعهود لدى الغربيين ، وحده القادر على قمع اية محاولة لردم الفارق الثقافي بين طرفي المعادلة :- شرق/غرب،لذافأن

هذا الغرب الطامح الى هذه الجاذبية ليس امامه سوى دعم هذه الاصوليات لتأبيد صورة الشرق ومنعه من الخروج من اطار هذه الصورة.

- **محنة الديمقراطيين العرب :**

هذه المحنة تتلخص بان الديمقراطيين هنا على قلتهم لا يواجهون عنت مجتمعاتهم فقط بل يواجهون اصولية غربية داعمة لهذه المجتمعات ايضا ، او بالادق يواجهون غربيين ديمقراطيين في بلدانهم اصوليين خارجها ! اي في سياساتهم الخارجية المقصودة بينما نتوهم نحن الديمقراطيين (الغفل) ان الغرب الديمقراطي سيكون معنا ضد الاصوليات وخاصة امريكا التي تدعي رعاية الديمقراطية في العالم، ما يحصل ان هؤلاء الغربيين لم يقفوا مع الديمقراطيين العرب ابدا بل كانوا وما زالوا يفضلون عليهم الاصوليين والسبب (ان تخلف بلداننا مؤات تماما للتطور الغربي)٤٨ على حد تعبير ادونيس وبنفس الاتجاه يؤكد ان السياسة الغربية (ملائمة للاصولية) اصوليتنا المدعومة غربيا بالطبع لان (التعارض مع الاصولية بالغ اليسر والسهولة) بينما يرتبك الغربي (امام ديمقراطي مثله ... فيفضل ان يجد امامه مستبدا او ظلاميا عربيا) ، هذا الكشف اعده مهما على صعيد تأكيد حقيقة الدعم الامريكي للاصوليات المتأسلمة بل حتى اسرائيل (لا تتوانى عن تعزيز الدين في الشرق الاوسط) لا باعتباره قيما و روحا فهذا لا مطعن فيه بل باعتباره (مؤسسة وقانونا)٤٩ ربما هذا الكشف نفسه هو الذي اوصل هادي العلوي الى اتهام الدوائر الغربية بصناعة قادة (اسلاميين) يؤهلون لزعامة الجماعات حيث يتهم العلوي هذه الجماعات وهو كان قد عايشها عن كثب بان (معظم قادتها متأهلون في الاوساط السرية التي تصنع القادة الشرقيين في كواليس اوربا وامريكا)٥٠ كل هذا العمل المخابراتي المدعوم باذرع سياسية تحتاج طبقة من العملاء المحليين والمستور بقشرة ثقافية احيانا ، كله لتأبيد صورة الشرق الاصولي المتخلف لصالح تفوقهم المزمن ! وهو جوهر الاستشراق كما اسلفنا ، وهنا يظهر ايضا من خلال هذا الكشف نفسه تورط امريكا بمستنقع

الارهاب وعدم براءتها من هذه الصناعة الخبيثة ، صناعة الموت التي تعصف بالشرق الاوسط جميعه .

- **دورة الخراب :**

من اللافت في الحياة العربية (والعراق ضمنها طبعا) انها تعيش دورة خراب ! العسكر والدكتاتوريات مهدت للاصوليات من خلال قمعها لمشاعر وحاجات الناس بحيث لا يبقى منفذ سوى التوجه لليوتوبيا وعندما وصلت هذه الاصوليات الى سدة الحكم بمعونة امريكية مارست الدور نفسه ولكن بمقولات ضاغطة و مستبدة جديدة تستدعي الانقلاب عليها من خلال دكتاتور او عسكر مرتقب ، كان هذا المنحى واحدا من تنبيهات الراحل (فرج فودة) وقد تحقق في بلده مصر قبل غيره بالعودة الى حكم العسكر بعد فشل الاستبداد الديني الذي ظهر في اعقاب استبداد دكتاتوري سايق ، ترى اين المشكلة ؟ باعتقادنا ان تحولات المنطقة مفرغة من روح المشروع ، هي انقلابات واحتلالات مخترقة بتأثيرات خارجية كما بيناها ، يقابلها على الطرف الاخر جمهورأدمن الانتباهات المتاخرة ، ادمن (دين الاباء) الذي يقف حائلا ازاء فهم وضرورة التحول وهي باختصار مجتمعات تتشدق بالتحول ولا تعرف كيف ! تناقض نفسها دون ان تشعر بل هي تعيق ذاتها من خلال التشبث بالسائد والغيبي المفرغ من روح المعرفة ، تغادر عصرها وفاء لعاداتها"!

....

- **دين الآباء..**

من وثنية الحجر الى وثنية البشر !

لايضاح هذه المسألة لابد من استذكار الحركات التغييرية الكبرى في التاريخ التي عانت من مماطلة الناس رغم قناعتهم بجديتها ، والاسلام في ظهوره الاول انموذجا

لهذه المسألة حيث ورد في الآي الكريم ان الكثير من اسباب ادبار المشركين عن قبول دعوة محمد (ص) لم تكن ناتجة عن تمحيصهم لهذه الدعوة بل لانها تخالف ماوجدوا عليه اباءهم لاغير ، ففي سورة البقرة اية ١٧٠ (واذا قيل لهم اتبعوا ماأنزل الله قالوا بل نتبع ما الفينا عليه آباءنا اولو كان آباؤهم لايعقلون شيئا ولايهتدون) وفي السياق نفسه ورد في سورة المائدة ١٠٤ (واذا قيل لهم تعالوا الى ماأنزل الله والى الرسول قالوا حسبنا ماوجدنا عليه آباءنا آولو كان آباؤهم لايعلمون شيئا ولايهتدون) هذا بعض من الايات وهي كثيرة ، ان دين الاباء ليس معتقدهم حصرا بل طريقتهم في العيش وعلاقتهم بالمعرفة التي هي عامل اساس في تحسين حياة أية جماعة فالتخلف الذي شكل تاريخا بأكمله اصبح عند العامة من الناس اليوم منهجا لايتسنى لهم مغادرته لا لانه سليم بل لانه السبيل والنمط الذي اعتادوا عليه علما ان هذا النوع من التفكير والاصرار عليه اصرارا اعمى هو جوهر الوثنية .. ترى هل يضيرهم بعد هذا التصنم ان (الاخر) بصورة الغازي / المحتل او الثقافي القادم لافراغنا يستثمر مثل هذا السلوك النمطي لابقائنا على مانحن عليه ؟ وهل يصدق احد من هؤلاء الناس اذا قلنا لهم :- ان هذه الاصوليات التي تتبركون بتخلفها هي حاضنة لنمطيتكم بل هي مدعومة بشتى الوسائل لكي تبلغ بكم هذا المبلغ الخطير ؟المشكلة ان صوت هذه الاصوليات اعلى من صوت الكشف والمعرفة وان العودة الى فضح مرامي الاستشراق معرفيا او التذكير بأهدافه الاولى لايصلح طريقا لتنوير وافهام العامة بل حتى النخب التي تجد مصلحة مؤقتة في الراهن الاسود الذي تعيشه! وباختصار ان التحجر على طريقة دين الاباء يقدم معونة اكيدة للمشروع الاستشراقي الذي يسعى الى تأبيد الفارق بين الشرق والغرب من خلال العمل على تأبيد وتأصيل رؤيتنا المتوارثة بحجة احترامها في بعض الاحيان وهو في حقيقته (احترام) لتخلفنا (الجاذب) لهم والمحروس بطبقة من الساسة الطفيليين والمنتفعين .

الهوامش

٢,١ / شمولية الثقافة بين ايغلتون و مولهيرن / جيفري ج . ويلمز / ترجمة مصطفى ناصر / مجلة الثقافة الاجنبية / العدد ٣ لسنة ٢٠٠٩

٤,٣ / تاريخ التاريخانية الجديدة واشكالية العلاقة مع اليسار الجديد / د. معن الطائي / مجلة الاقلام العدد الثاني ٢٠٠٩

٥- العراق ومعاصرة المستقبل / ميثم الجنابي / اصدار المدى ٢٠٠٤

٦- ينظر بهذا الصدد مقال (الذاكرة العراقية والتاريخ البديل) سعد سلوم / مجلة مسارات العدد ١٣ لسنة ٢٠٠٩

٧- الشاعر الغريب في المكان الغريب / شاكر لعيبي / اصدار المدى ٢٠٠٣

٨- مقال (البحث عن سوأل التجديد) ياسين النصير / طريق الشعب العدد ١٣٠ لسنة ٧٥ في ٢١ شباط ٢٠١٠

٩- الثقافة في العلاقات الدولية / مايكل ج مزار / ترجمة د. هناء خليف غني / الاقلام العدد ٤ لسنة ٢٠٠٩

١٠- همسات في اذان العراقيين / د. سيار الجميل / جريدة الصباح العدد ١٧٧٨ في ١٧ ايلول ٢٠٠٩

١١- المفكر ميثم الجنابي / حاوره محسن يوسف / الصباح في ٢٠٠٩/٤/٨

١٢- ضوء على ولادة المجتمع العراقي المعاصر / د. سليم الوردي / اصدار جريدة الصباح ٢٠٠٩

١٣- الثقافة في العلاقات الدولية

١٤- اشارة الى موظوعة (الكسب السريع) الخبيرة الاعلامية د. حياة الحويك في مقابلة على قناة الجزيرة ٢٠١٠/٣/٩

١٥- دراسة في طبيعة المجتمع العراقي / د. علي الوردي ص٢٠٢ / اصدار المطبعة الحيدرية قم ١٩٩٨

١٦- ضوء على ولادة المجتمع العراقي المعاصر ص٨٤

١٧- الذاكرة البديلة والتاريخ البديل / سعد سلوم / مسارات العدد١٣ لسنة ٢٠٠٩
١٨- الروح الحية / فاضل العزاوي / منشورات المدى ١٩٩٧
٢٠,١٩ / ضوء على ولادة المجتمع العراقي المعاصر
٢١- عام قضيته في العراق / بول بريمر / ترجمة عمر الايوبي دار الكتاب العربي ٢٠٠٦
٢٢- مقال (لسماح ادريس حق الكلام وللاخرين حق الرد) حسين كركوش / طريق الشعب العدد ١٣٠ في ٢٠٠٨/٢/٢٤
٢٣- نقد الخطاب الديني / نصر حامد ابو زيد / المركز الثقافي العربي ط ٣ ٢٠٠٧
٢٤- مقال (منطق الالتفاف) قاسم جمعة / ملحق الصباح في ٢٠٠٨/٢/١٣
٢٦,٢٥ / نقد الخطاب الديني / نصر حامد ابوزيد
٢٧- نقد الحقيقة / علي حرب ص١٤١
٢٨ – النقد المزدوج / عبدالكريم الخطيبي / دار العودة بيروت
٢٩- نقد الحقيقة / علي حرب ص٣٦
٣٠- ضوء على ولادة المجتمع العراقي المعاصر
٣١- العراق ومعاصرة المستقبل
٣٢- تحرير الديني من السياسي / محمد محفوظ
٣٣- عمار السواد / مسارات / عدد١ لسنة ٢٠٠٩
٣٤- الاصلاح الديني التاريخ والممارسة / علاء حميد / مجلة مسارات العدد ١ لسنة ٢٠٠٩
٣٥- نقد الخطاب الديني / نصر حامد ابوزيد
٣٦- حسين درويش العادلي / مسارات عدد١ لسنة ٢٠٠٩
٣٨,٣٧ / تحرير الديني من السياسي / محمد محفوظ ص٩٧
٣٩- ينظر بهذا الصدد عبدالكريم سروش / السياسة والتدين
٤٠- الكلام والنظام / ادونيس / دار الساقي
٤١- نزار عبدالستار / تاتو / العدد ١٤ في ١٥ نيسان ٢٠١٠
٤٢- كهنة العنف / كاظم الحسن ملحق الصباح ٢٠٠٨/١/٣٠
٤٣- الثقافة والمقاومة / ادوارد سعيد / دار الاداب ٢٠٠٩
٤٤- هل دقت ساعة الاخوان ؟/ امين قمورية / مجلة الاسبوعية / العدد ١٧٠ في ٨ ايار ٢٠١١
٤٥- الاستشراق / ادوارد سعيد ص٢٧١
٤٦- المصدر السابق ص٣٢١

٤٧- ذهنية التحريم / صادق جلال العظم / اصدار المدى ٢٠٠٤ ص١٨٩ نقلاعن (جاذبية الاسلام) ترجمة :- الياس مرقص / بيروت دار التنوير ص٦٢ الاصل الفرنسي

٤٨_الهوية غير المكتملة / ادونيس / تعريب : حسن عودة

٤٩_ المصدر السابق نفسه

٥٠_ هادي العلوي / المرئي و اللامرئي / ص ٤٥

الفهرس

١. تمهيد : مقهى سقراط .. كوميديا المعنى

٢. منحى إجتماعي / سكاني :

جدل الجغرافيا وتناشز الأمكنة

٣. فساد السياسة ومتطلبات البناء الثقافي

٤. منحى اقتصادي :

مأسسة الثقة وحاجة الاقتصاد الى فضائل

٥. الإنهيار التسعيني في العراق

٦. بين الاحتلال والتحرير : أزمة إنتاج المعنى

٧. نقد التجربة الأصولية

٨. أزمة الإصلاح الديني

٩. أزمة الإصلاح بين الإجتماع والسياسة

١٠. أفق الثقافة ومشكلاتها

١١. الاصلاح التكاملي

١٢. مقال ملحق : قراءة معرفية

١٣. هوامش البحث

صدر للمؤلف

- سعادات سيئة الصيت / شعر / ١٩٩٥
- لا أحد بإنتظار أحد / شعر / ٢٠٠٠
- أسئلة النقد / نقد / ٢٠٠٤
- تحولات النص الجديد / نقد / ٢٠٠٤
- بين الثقافة والكارثة / نقد / ٢٠٠٦
- الأخطاء رمال تتحرك / شعر / ٢٠٠٨
- وعي التأسيس / دراسات ثقافية / ٢٠٠٩
- إصغاء قبل فوات المشهد / نقد / ٢٠١٠
- كتابة الجسد / نقد / ٢٠١٠
- بحيرة الصمغ / شعر / ٢٠١١

Library of philosophy and knowledge
مكتبة
فلسفة و معرفة
t.me/falsafaANDma3refa
تنضيد ونشر ألكتروني / علاء الموصلي

إن عطل الثقافة في العراق أسبابه اجتماعية صرفة وهو الأمر الذي نريد أن نتصدى له من خلال عبور مهمة المثقف (التقني) إلى النقد الثقافي/ نقد السياق الاجتماعي الذي تنشأ في ظله ظواهر الإبـداع أدبا أو فنا، هذا ما يحدونا إلى مباركة مفهوم (علم الاجتماع الثقافي) الذي تحدثت عنه الباحثة جانيت وولف... نحتاج إلى استبدال لغة الشكوى بالكشف، الانتقال من جاهزية التبرير إلى مساءلات نقدية جادة: لماذا يتأزم مفهوم الثقافة لدينا؟ ولماذا تنكسر قيمها على صخرة منظومة اجتماعية تحتكر التأثير لمفاهيمها الخاصة؟ يبدأ الفحص إذن بمعاينة هذه المفاهيم/ الأفكار التي يحاول هذا المجتمع حمايتها من لسعة الثقافة!

من مقدمة الكتاب

Cover designer: dafirphoto@yahoo.com

بغداد - شارع المتنبي- مدخل جديد حسن باش
هاتف: 07711002790 - 07905219996
E-mail: bal__alame@yahoo.com
سطور للنشر والتوزيع